الدكتور فليكس بروني

# في الدار البيضاء

## من 1 إلى 7 غشت 1907 م

ترجمة بوشعيب الساوري

تقديم علال الخديمي



الدكتور فليكس بروني

# في الدار البيضاء
# من 1 إلى 7 غشت 1907

ترجمة بوشعيب الساوري

تقديم: علال الخديمي

منشورات القلم المغربي

طبع هذا الكتاب بدعم من
وزارة الثقافة والاتصال




المؤلف: الدكتور فليكس بروني
في الدار البيضاء: من 1 إلى 7 غشت 1907 (رحلة)
ترجمة: بوشعيب الساوري
الأصل المترجم عنه: **A Casablanca 1er - 7 Août 1907**
الطبعة الأولى – الدار البيضاء القلم المغربي 2019
منشورات القلم المغربي – الدار البيضاء، المغرب

المطبعة:
الغلاف: الفنان التشكيلي بوشعيب خلدون
رقم الإيداع القانوني: 2019MO3276
الرقم الدولي المعياري للكتب (ردمك): 978-9920-649-00-1

الدكتور فليكس بروني

# في الدار البيضاء
# من 1 إلى 7 غشت 1907

ترجمة بوشعيب الساوري

تقديم: علال الخديمي

منشورات القلم المغربي

# تقديم

في صيف سنة 1907، بلغ التوتر في العلاقات المغربية الفرنسية مستويات خطيرة، نتيجة للضغوط الفرنسية المتزايدة، على المخزن المغربي، ونتيجة لاحتلال مدينة وجدة في مارس 1907، وزحف طلائع الاحتلال الفرنسي في الصحراء المغربية الجنوبية. وقد زاد الطين بلة، والتحريض شحنة، شروع شركة فرنسية في إصلاح مرسى الدار البيضاء، ومد سكة حديدية لجلب الحجر، وجلوس مراقبين فرنسيين ممثلين للأبناك الفرنسية الدائنة للمغرب، مع الأمناء المغاربة المكلفين بالجمارك، في المراسي المفتوحة للتجارة مع الخارج، وعلى رأسها مرسى الدار البيضاء؛ الأمر الذي عد من طرف المغاربة تدخلا سافرا في السيادة الوطنيــة.

كان التوتر في أحواز مدينة الدار البيضاء ملحوظا؛ بحيث طالبت جماعة من ممثلي قبائل الشاوية المجاورة للمدينة، بطرد المراقبين الفرنسيين، وإيقاف قاطرة السكة الحديدية، ومقاطعة التعامل مع الجالية الفرنسية. وتطور التوتر إلى فتنة أو شجار، بين مجموعة من المغاربة الغاضبين، والفرنسيين العاملين بورش المرسى، عشية يوم 30 يوليوز 1907، ذهب ضحيته تسعة عمال أجانب وبعض المغاربة.

وقد عادت الحالة إلى طبيعتها، إثر هذا الحادث، وتمكنت السلطات المحلية من فرض النظام والأمن، وإخراج البدويين من المدينة، وتحملت بأمن الجالية الأجنبية التي لم تغادر مساكنها،

وفي مقدمتها الجالية الألمانية. وأبدى المخزن استعداده لإعطاء جميع الترضيات للحكومة الفرنسية ولعائلات القتلى، كما عبر السلطان مولاي عبد العزيز عن أمله في تقدير الحكومة الفرنسية لهذه الإجراءات. وخوفا من رد الفعل الفرنسي عمل زعماء قبائل الشاوية على توحيد صفوف القبائل، والاستعداد لكل طارئ قد يأتي من البحر.

أما الأوساط الفرنسية، وفي مقدمتها الهيأة الدبلوماسية الفرنسية بالمغرب، والأوساط الاستعمارية بباريس؛ فقد حرصت على استغلال الحادث لإخضاع الحكومة المغربية، وإنهاء صمودها أمام المطالب الاستعمارية، وإرغامها على التعاون المزعوم مع الحكومة الفرنسية، والموافقة على نزول قوات فرنسية، لاحتلال مدينة الدار البيضاء ومعاقبة المتهمين عن حادث 30 يوليوز؛ ذلك أن الحكومة الفرنسية قررت يوم 2 غشت احتلال الدار البيضاء ومعاقبة قبائل الشاوية بإرسال حملة عسكرية قوامها 3000 جندي بقيادة جنرال.

وتآمر المكلف بالأشغال الفرنسي، الكونت دو سان أولير، الذي كان ينوب عن السفير رونو، مع قائد السفينة الحربية كاليلي التي كانت مكلفة بمراقبة الشواطئ المغربية منذ سنة 1906، للذهاب فورا إلى الدار البيضاء، والاستعداد لقصفها. ولقد ألح سان ـ اولير مرارا على ضرورة احتلال المغرب، انطلاقا من الدار البيضاء، وعلى ضرورة معاقبة المغاربة، حكاما ومحكومين، وإعطائهم درسا قيما يمكن أن تفعله قوة فرنسا، حتى لا يفكروا في مقاومتها مستقبلا، وحتى تزداد هيبة الحكومة الفرنسية في الأوساط المخزنية.

وصلت البارجة الفرنسية كاليلي إلى الدار البيضاء في الصباح الباكر، من يوم الخميس 1 غشت 1907. واتخذ قائدها عدة إجراءات حربية، في البحر وفي البر، باتفاق مع المكلف بالقنصلية الفرنسية بالدار البيضاء، تنبئ بإجراء عسكري قادم ضد المدينة. وعلى الرغم من الإجراءات الأمنية التي اتخذها خليفة السلطان مولاي الأمين والقائد بو بكر بن بوزيد، مثل حراسة طريق المرور لمن ينزل من الفرنسيين، ووضع قوات كافية لحراسة مدخل المرسى والطريق إلى القنصلية الفرنسية التي خصصت لها حراسة مكونة من حوالي 35 جنديا؛ بالرغم من ذلك كله، مورست عليهما ضغوط وتهديدات، جعلت مولاي الأمين يوافق على كل المطالب التي قدمها القنصل الفرنسي باتفاق مع قائد البارجة؛ في حين همش قائد المدينة الذي تحفظ من وضع المسؤولية كلها على الجانب المغربي، ومن ثم عد من أعداء فرنسا الذين تجب معاقبتهم.

وعلى الرغم من معارضة القناصل الأجانب لتدخل السفينة الحربية، فإن نائب القنصل الفرنسي، اتفق مع قائدها على الترتيبات والخطوات الكفيلة بإجراء حربي ضد المغاربة، وتركوا ساعة الصفر لتنفيذ الأمر سرا بينهما.

وفي فجر يوم الاثنين 5 غشت سنة 1907، وبعد وصول فرقة من البحارة الذين نزلوا لتعزيز حماية القنصلية الفرنسية، والذين ارتكبوا مجزرة ضد المكلفين بمركز الجمارك؛ وضد الجنود المكلفين بحراسة القنصلية الفرنسية، تعرضت مدينة الدار البيضاء لقصف مفاجئ وغادر، نفذته مدافع كاليلي، بعد أن تأكد قائدها المسمى أوليفي OLLIVIER، من اقتراب وصول الأسطول الحامل لقوات احتلال الدار البيضاء، من الموانئ الجزائرية.

ولقد كتب عن هذه الواقعة عدد من الصحافيين والعسكريين والكتاب الفرنسيين، الذين سايروا الرواية المحرفة والموجهة، التي نشرتها الدبلوماسية الفرنسية. ومن بين الكتابات العسكرية الشهادة التي رواها الطبيب العسكري من بحارة كاليلي؛ الدكتور فليكس بروني FELIXE BRUNET، الذي رافق الفرقة النازلة من بحارة كاليلي صباح 5 غشت، وهي الشهادة التي سبق له أن نشرها سنة 1909، بمجلة باريس، في عددي 15 مارس و15 أبريل، والتي نقدمها للقارئ في هذا الكتاب. وقد تفضل الأستاذ بوشعيب الساوري بترجمة هذه الشهادة، ترجمة أمينة، وتمكن من الحفاظ على صيغتها الأساسية، بالرغم من تقنية بعض كلماتها وجملها ذات الطابع التاريخي. وتحمل عنوان: **في الدار البيضاء؛ من 1 إلى 7 غشت سنة 1907.**

تعتبر شهادة بروني ذات أهمية تاريخية بارزة، إذ كتبها طبيب عسكري كان عنصرا شاهدا ومشاركا في الوقائع التي وصفها. فهل توفق بروني في نقل الوقائع بأمانة وموضوعية؟ أم غلبت عليه وظيفته كطبيب عسكري، في ظرفية استعمارية كان الكل منخرطا في أداء واجبه فيها؟

تعرض بروني لمعظم التطورات التي تسببت في حادث مقتل العمال بالمرسى، وجاءت روايته قريبة من الواقع أكثر مما كتبه غيره من الفرنسيين، الذين اهتموا بتاريخ مدينة الدار البيضاء؛ إذ أشار إلى الأسباب الحقيقية لحادث 30 يوليوز، التي أوردناها أعلاه، وفي مقدمتها جلوس المراقب الفرنسي بالديوانة. كما تتبع الوقائع منذ يوم 1 غشت إلى يوم 7 غشت، يوما بيوم بل ساعة بساعة، وركز على وصف ما جرى أيام 5 و6 و7 غشت؛

أي الأيام التي جرت فيها وقائع كارثة هدم الدار البيضاء، التي ارتكبتها البارجة كاليلي أولا، وسفن الأسطول الحربي الفرنسي. ومما كتبه بروني تتأكد الضغوط الإرهابية التي مورست على السلطات المحلية وفي مقدمتها مولاي الأمين، الذي قبل جل المطالب الفرنسية، والقائد أبو بكر بن بوزيد، الذي قدم مئونة ضخمة من ثيران وأكباش وفواكه إلى البارجة الحربية، ومع ذلك أسر وعوقب على مواقفه الوطنية.

وبالمقابل لم يخف بروني في روايته ترديد التبريرات الواهية، التي استعملها الفرنسيون لتبرير ما ارتكبه قائد البارجة الفرنسية، من هدم منازل المغاربة فوق رؤوسهم صباح يوم 5 غشت بالحي الشعبي "التناكــر". كما ردد بعض المغالطات لإخفاء شمس المؤامرة التي دبرها سان أولير مع قائد السفينة أوليفي، والتي حللناها في كتاب **التدخل الأجنبي والمقاومة بالمغرب؛ حادثة الدار البيضاء واحتلال الشاوية** اعتمادا على تقارير أوليفي وما كتبه سان أولير نفسيهما.

وقد وردت أوصاف قدحية في مقالة بروني؛ الذي وصف المغاربة "بالمجرمين" و"العصابات" و"النهاب" و"المتعصبين"؛ وركز على ما قام به الفرنسيون، وكثيرا ما تشفى من المغاربة الذين كانت المدافع تسقطهم أرضا، والذين واجهوا مدفعية الفرنسيين بما ملكوا من بنادق، مما دل على حقد في النفس، لا يفسر إلا بالصمود الذي أبداه المغاربة في مقاومة المعتدين. ولم يستطع الكاتب إخفاء رد فعل المغاربة والمقاومة الشديدة التي أبدوها، على الرغم من المفاجأة، ومن صدمة القوة الجبارة للمدفعية الفرنسية، التي فجرت المساكن فوق رؤوس أهلها. زد

على ذلك أن بروني قد سكت عن مجزرة السور الجديد، التي وصفها الصحفي جورج بوردون، في كتابه **ما شاهدته في المغرب، أيام الدار البيضاء** الصادر سنة 1908.

وبالجملة، فإن مقالة بروني تعد من المصادر الأساسية لمن يرغب في فهم ما جرى بالدار البيضاء في غشت 1907؛ سواء من المتخصصين أو القراء العاديين. وقد فعل الأستاذ بوشعيب الساوري خيرا بنقل هذه المقالة إلى العربية، التي تزيل الغموض المقصود من الاستعماريين الذين يخلطون بين حادث السكة الحديدية يوم 30 يوليوز وكارثة الدار البيضاء التي جرت أيام 5 و6 و7 غشت.

إن الأحداث المروية تبرز بوضوح النواميس التي كانت تقود تصرفات الاستعماريين، في مواجهة الشعوب المستضعفة، كما تكشف عن الأساليب الاستعمارية، في الاحتلال وإزالة العراقيل، باستخدام القوة العسكرية المفرطة، التي كانت ولا زالت أسلوبا أساسيا في العلاقات الدولية.

الأستاذ علال الخديمي
عين العودة في 1 يوليوز 2019

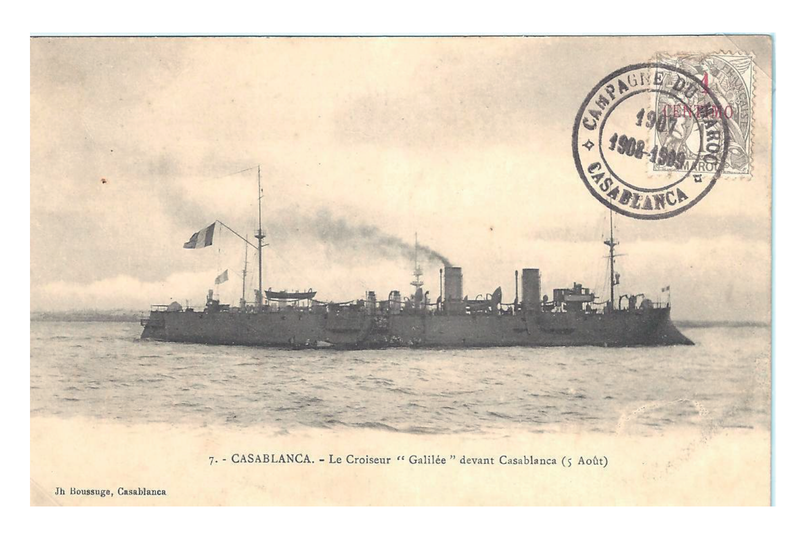
# على متن كاليلي

**في يوم أمس الأربعاء** 31 **يوليوز** 1907م بمرفأ طنجة، صعد دركي تابع لمفوضية فرنسا إلى السفينة [**كاليلي**]، حاملاً رسالة مُستعجلة إلى الرائد **أوليفيي** [1] (Ollivier) . كان يبدو أن الأمور ليست على ما يرام بالدار البيضاء: فأصدر الرائد أمراً بتجهيز زورقه والذهاب إلى السيد **دو سان أولير**[2] (De Saint-Aulaire) المكلّف

1 – هو شارل فيكتور كليمون ماري أوليفيي (Charles Victor Clément Marie OLLIVIER) (1858–1918م)[المترجم]

2 – عُيّن في 22 غشت 1902 ثم أصبح آخر عام 1904م الكاتب الأول، بدل ديسكوس، في مفوضية فرنسا بطنجة ثم استدعاه ليوطي سنة 1912م لشغل منصب وزير مفوض للإقامة العامة بالرباط. يُعد مرجعاً هاماً للأحداث أوائل القرن العشرين، وكان أول عمل قام به هو التدخل لدى بنك باريس للحصول على قرض للمغرب. بعد اتفاق 8 أبريل بين فرنسا وانجلترا الذي أقر بمصالح فرنسا بالمغرب مقابل مصالح انجلترا بمصر، وأن من حق فرنسا السهر على سلامة المغرب وكان السلطان قد تأثر بالاتفاق الفرنسي الانجليزي ومساعدته في جميع الإصلاحات، وهو ما اضطر سان أولير للسفر إلى فاس لمفاتحة المخزن حول السلف. وهو ما صعب لقاءه بالسلطان الذي تأخر بسبب احتجاجه على الاتفاق الفرنسي الانجليزي. وفي الأخير قابله السلطان. ينظر عبد العزيز بنعبد الله، **السفارة والسفراء بالمغرب عبر التاريخ**، منشورات المعهد الوطني للدراسات القضائية، الرباط، 1985، الصفحات 110–109–108–107. [المترجم]

بشؤون فرنسا في غياب السيد **رونو** [3] (Regnault) ، الذي كان يقضي، في ذلك الحين، إجازته بباريس.




تساءل أغلبُنا: "الدار البيضاء؟ أتعرفون هذا؟" لقد أبحرت البارجة الحربية **كاليلي** (Galilée) كثيراً في السنة الماضية على السواحل المغربية. لكنها غادرتها منذ ثمانية أشهر كي تخضع لإصلاحات بتولون [4]، وجُدّدت أركانُها. كان ثمانية ضباط من عشرة يعرفون كل شيء عن المغرب. وبما أنّه لم تمر سوى ثلاثة

---

3 – هو أوجين لويس جورج رونو (Eugène Louis Georges Regnault) (1857 -1933م) دبلوماسي فرنسي اطلع بعدة مهام دبلوماسية في تونس واليونان وسويسرا. في سنة 1906م كان المندوب الثاني لفرنسا بمؤتمر الجزيرة الخضراء قبل أن يعين وزيرا مفوضا لفرنسا بطنجة، وظل بالمغرب إلى غاية سنة 1913م. [المترجم]

4 – تولون مدينة فرنسية ذات ميناء على البحر الأبيض المتوسط.[المترجم]

عشر يوماً على حلولنا بمرفأ طنجة، جاءت السفينة مباشرة من دار صناعة السفن. فقبطان الفركاطة، **أوليفيي**، الرائد، وملازما السفينة **برينجر** (Bérenger) **وبلاند** (Ballande)، وحدهم من سبق لهم أن زاروا الموانئ المغربية. لكن مرور سنة من الابتعاد عنها سرعان ما جعلتهم يغفلون شؤون المخزن.

فالقبطان، الذي كان يفترض أن يتم تعويضه خلال ستة أسابيع، والذي كان واثقاً بفضل سجل خدمته الجيد من أن يُدرج اسمه في جدول الترقية مثل جميع سابقيه على متن السفينة، منذ وصولنا، أتاح لنا أن نعيش حياة هادئة.

كان يبدو، فضلاً عن ذلك، أن المغرب يستغرق في سبات صيفي. لم يفكر الدبلوماسيون والتجار والموظفون سوى في قضاء إجازاتهم في أوربا بمدن المياه الباردة. كان الإعلان عن الأخبار السيئة للدار البيضاء مفاجئاً، بالنسبة لنا نحن الذين كنّا نجهل كل ما يجري على الساحل خلال الأيام الأخيرة.

أرست للتو على المرفأ سفينة **موكادور** التابعة لشركة **أولندبورغ** (Oldenburg)، خلّصتها زوارق من حشد يعج عجّاً، على الجسر، ووضعوا على رصيف التحميل لفيفاً من الناس القذرين رثي الثياب وزعاقين. تمكنّا من تمييز يهود الملاح المغربي بملامحهم التوراتية والمحافظين على نقائهم (العرقي). تجمعت أسر كثيرة حول الأمتعة، وتراكم بائس من الحبال تُظهر حطام الأثاث، وحزم من الأسمال، وأغطية وزرابي، وأواني المطبخ، وحقائب طافحة قملاً وحقائب مشقوقة تشدها خيوط. راكم الرجال ذوو الأثواب البالية والشاشيات السوداء السلع العتيقة على العربات

الصغيرة إلى غاية [مبنى] الجمارك، ثم حملوها على حمير قصيرة؛ وهي عربات النقل الوحيدة الموجودة بطنجة. كانت النساء مقرفصات أرضاً مدثرات داخل أثوابهن الكاشميرية، وشعورهن معصوبة بمناديل ذات ألوان براقة، تُراقبن بقايا أثاثهن بنظرات خاطفة لأعين سوداء لا تتوقف عن الحركة، أو يوبّخن صغارهن رثّي الثياب.

جاءت سفينة **موكادور** من الدار البيضاء، محمّلة باللاجئين. لقد قُتل للتو بعض عمال الشركة الفرنسية للميناء بتحريض من قبائل الشاوية المحيطة بالمدينة والمهددة بنهبها. تلقت البارجة الحربية **كاليلي** أمراً برفع المرساة في الساعة الثامنة لكي تحل في اليوم الموالي بالدار البيضاء. كان على متْنها السيد **لوري** (Luret) مدير خدمات مؤسسة الاقتراض المغربية. سنقوم أيضاً بنقل الدكتورِ **ميرل** (Merle)، طبيب مستوصف الدار البيضاء، الذي جاء مبعوثاً على متن **موكادورِ**، من قبَل وكيلِ القنصلية، السيد **نوفيل** [5] (Neuville)، حاملاً إلى المفوَضية تقريراً رسمياً عن المجزرة. اكتفى بأخْذ قسط قليل من الوقت لوضع أسرته في مكان آمن بطنجة وعاد إلى مركزه.

****

**في الثامنة تماماً** توجّهت **كاليلي** نحو كاب سبارتيل، الذي كان ما يزال مضاءِ ببعض البوارق. كانت ليلة صيفية رائعة، ذات سماء متلألئة نسبياً منعكسة على البحر، يحلو خلالها الحديث حينما

5 – ديديي نوفيل (Didier Neuville) دبلوماسي فرنسي. [المترجم]

لا تكون هناك خدمة. انغمسنا في استجواب ضيفينا، السيدين **لوري وميرل**، لفترة طويلة.

وجدت بعضٍ الإصلاحات التي فرضها مؤتمر الجزيرة الخضراء، وأساساً الرقابة الجمركية والشرطة، عداء الطبقات المغربية العليا، لأنها بقمع أرباحها غير المكشوفة، تعرض ثرواتها للضرر وتعيق استغلالها للبلد. بما أن ميناء الدار البيضاء كان الأغنى في كل الساحل، فقد عانى بعنف من الانقلاب المضاد للتجار المتضررين، والاستياء ومساعي التمرد، مما زاد من ضعف حاكم عاجز، **سي بوبكر بن بوزيد** الذي حلّ منذ شهور محل **الحاج حمو**، وكان ابنه، قايد قبيلة أولاد احريز، يأمل منذ زمن طويل في خلافة الأب. لم يتوقف **حمو** المتحسر عن خلق العراقيل لخصمه من أجل إظهار عدم قدرته على حمايةِ الدار البيضاء من فتن قبائل الشاوية المجاورة. باعتباره أميناً سابقاً للجمارك، تمكّن **سَي بوبكر** من الحصول على ذلك المنصب عبر المال، اعتقد أنه يمكنه تهدئة مثيري القلاقل عبر توزيع بعض الأموال على أشدهم عتواً، لكنه لم يعمل سوى على مضاعفة الأطماع. منذ ذلك الحين صارت المدينة معرّضة لأن تكون ضحية للنهب. طالبت الهيئة القنصلية بأكملها، في مناسبتين، يومي 7 أبريل و12 ماي 1907م بخلع القائد الذي وصفه السيد **ماليبرتي** [6] (Malpertuy) ، قنصل فرنسا، بال"خطر العمومي."

6 – هو جان كلود لازالر ماليبرتي (Jean-Claude Lazare Malpertuy) دبلوماسي فرنسي اشتغل قنصلا لفرنسا بالدار البيضاء ما بين 1902 و1910م. [المترجم]

قدم تشاور السلك الدبلوماسي بطنجة، بالإجماع، نفس الالتماس إلى المخزن الذي أجاب بأن القايد يحظى بثقة السلطان وكان من المستحيل استبداله. كان عم السلطان، **مولاي الأمين** (التي نكتبها ببساطة **مولاي لامين**)، قد أرسل رُفقة مجموعة عسكرية صغيرة إلى منطقة الشاوية حتى يتمكن من احتواء القبائل الأكثر هُياجاً. لكن للأسف، لم تكن محلة الأمير قادرة لا على التصرف ولا على إلهام الخوف في صفوف القبائل. فضلاً عن ذلك، لم تكن تتقاضى أجراً، فكان عليها أن تعيش على حساب سُكان البلد، يعني أنفاق ثابتة من النّهب.

في البداية خفّف حضوره الوضع قليلاً وسمح للسيد **مالبيرتي**، قُنصلنا، بالذهاب يوم 20 يونيه في إجازة، كانت حالته الصحية المتعبة في حاجة إلى قضاء عطلته في أماكن باردة. تولّى السيد **ميكري** (Maigret)، نائب القنصل، الخدمة، واتخذ بالقرب منه كمستشار له، السيد **إمانويل نوفيل** (Emmanuel Neuville)، صهره، الذي كان طالب نائب قنصل، وملحقاً مؤقتاً بطنجة. في الأيام الأولى لشهر يوليوز نقل زوجته المريضة إلى بيت أسرتها بجبل طارق، إذ صار السيد **نوفيل** مسيراً للقنصلية بمعية ترجمان، هو السيد **الزاكوري**، ومضطلعاً بمهام المستشار. أيام قليلة بُعيد ذلك، جاء السيد **بيرتي** (Berti) وكيل إدارة مؤسسة الاقتراض المغربية ليُشرف على تنصيب عملية مراقبة الجمارك، وهي مهمة فرضها ميثاق الجزيرة الخضراء وعهدها إلى موظف فرنسي، وعهد الدار البيضاء إلى السيد **دارمي** (Darmet). في هذه المناسبة تم تبادل للزيارات والمديح والتهاني وشهادات الصداقة بين الموظفين الفرنسيين والمغاربة.

لكن لا يمكن أن تُوهمنا هذه المظاهر بالمشاعر الحقيقية: بالنسبة للموظفين المغاربة؛ كان النظام الجديد بالنسبة لهم تقليصاً كبيراً للمال والحظوة، فلم يُقبل عن طيبٍ خاطر في أي مكان. كان هؤلاء الناس قد دفعو ثمنا باهظا، فعلاً، أعباءهم للمخزن، لم يحتفظوا سوى بتجديد هداياهم، بتواتر، إلى حُماتهم من حاشية السلطان أو القائد. وإذْ أنّ أسهل الامتيازات لا يُمكن أن يأتي إلاّ عن طريق الخداع المقبول على نحو ضمني، ما دامت الرواتب الرسمية مثيرة للسخرية.

كانت للعديد من الأُسر الأوربية، المُقيمة مُنذ مدة طويلة [بالدار البيضاء]، علاقات عَديدة في البلد بفضل محمييها القنصليين وتوفّرها على رساميل كبيرة. كانت أكثر ملاءمة للطريقة القديمة من النظام والقانون العام. من خلال المساومة، لكن كان دائماً، في مصلحة الطرفين، تقليص رسوم الجمارك بنسبٍ ذات قيمة من تلك التي كانت تسري على كميات كبيرة جداً. كان بعض التّجار قد طرحوا حينها بالسوق كميات من الشعير والقمح والذرة بأثمنة تحدّت كل منافسة أو خففت بعض المشاريع النظامية إلى مستوى العجز. أدت مراقبة الجمارك إلى اختفاء تلك المنظورات. وأيضاً في المحادثات مع الأهالي، كان كل المستفيدين من المعاملات المهدّدين يسعون إلى منع عمل المراقبة عبر التظاهر بأن تكون هناك خطة فرنسية. فذلك من أجل إفلاسِ خصومهم الذين كان الفرنسيون قد دبّروا لهم تدبيراً مراوغاً خارج إطار العدالة والتنافس الحر؛ حين سيتم بناء ميناء الدار البيضاء من قبَل الشركة الفرنسية، وسيتم تشغيله، من ماذا سيعيش مفرغو البضائع والحمالون وأصحاب الزوارق وهذا الحشد من العمال

الذين لا يمكن الاستغناء عنهم اليوم؟ قريباً يُمكن لقارب أيّاً كان أن يرسو كل حين ٍوفي كل وقت مدّ وجزر. لن تكون المدينة محميةٍ أبداً بمدخلها الخطر؛ باشر الفرنسيون تنفيذ مشاريع كارثية أيضاً. كانت حينها قاطَرة وعربات تحمل الأحجار من المقلع المجاور، بدل استعمال بغّالين وحيوانات. لن يمر وقت طويل حتى تحمل السكك الحديدية الممتدة الحبوبَ من الحقول: سيؤدي ذلك إلى إقلاق راحة الأموات في قبورهم وسيضع حداً لأمن النساء في الدواوير والقضاء على وسائل العيش في البوادي، لأنه لن يكون الناس في حاجة إلى الجمال والحمير والخيول والعمال لنقل منتوجاتهم الفلاحية. وآنذاك سيندم على عدم المقاومة عندما حان الوقت.

وأضاف المبشرون بسلامة أراضي المغرب: "كل هذا للفرنسيين الذين فرضوه عليكم، لأنهم هم الذين طالبوا بإصلاحات. أما نحن، فالوضع الحالي يكفينا، لا نرغب سوى في استقلال السلطان، كما كان فيما مضى، نحن قانعون بالوسائل القديمة التي كان يعيش بها آباؤكم سعداء وكانوا يعتنون بها. قلوبنا معكم ومستعدون لدعم حقوقكم؛ لكن ينبغي أيضاً أن لا تتظاهروا بقبول الأشياء الجديدة التي تمّ إدخالها إلى بلدكم."

ساعدت هذه التوصيات، الرائجة بمهارة بالمدينة وفي القبائل، على شراء المحاصيل بثمن رخيص وعلى استخلاص ثمن البنادق. من سيعرف، أكثر من أي وقت مضى، كم من الأوربيين يستخلصون عائداتهم الأكثر شفافية من تهريب الأسلحة؟ قليلون هم الذين قاوموا جاذبية بيع 200 فرنك والذي كلفهم 20 فرنكا. إن تمت، إضافة إلى مورد العائدات هذه، التجارة

الحمائية والمشتريات بأوزان مزيفة ومضاربات الغش في الجمارك والضرائب غير المؤداة، وامتياز عدم الأمن بالنسبة للخصوم، والإفلات من العقاب بالنسبة للأصدقاء، وحصانة البعض، كيف يمكن تقبّل نهاية نظام مساعد على عمليات جد مربحة؟ أخّر موقف الشاويين العدائي على الأقل الإصلاح الفرنسي الإسباني.

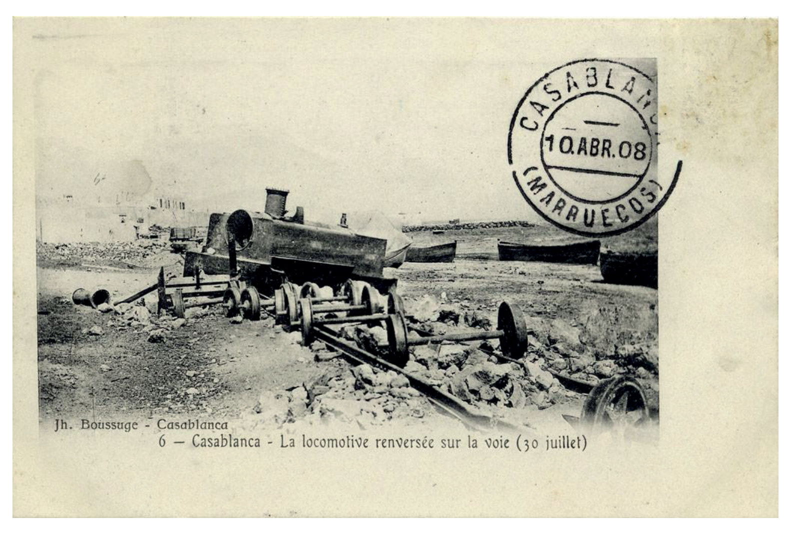
أما بالنسبة للقبائل، فإن الأمل السري في تلقي مبلغ كبير في حالة وجود تهديد للمدينة، وإيقاف التبادلات المشكوك فيها، وربما الاضطرار إلى نهب الملاح وممارسة بعض الاسترجاعات الفردية بفضل الاضطرابات، ألا يستحق ذلك برهنة؟ أرسلت القبائل يوم 28 يوليوز مندوبين إلى القايد لإنذاره بإلغاء المراقبة الفرنسية للجمارك، وإيقاف أشغال الشركة الفرنسية لبناء الميناء وتهديم السكك الحديدية التي كانت تنقل المواد من المقلع إلى حائل الأمواج الذي كان في طور البناء. لمواجهة هذه التهديدات ماطل **سيدي بوبكر** وناقش واستغرق بعض الوقت. وفي اليوم الموالي، في الخامسة مساء 29 يوليوز، ذهب السيد **نوفيل** للتحري حول نواياهم، لكنه لم يتمكن من الحصول على أي شيء.

**في يوم الثلاثاء** 30 **يوليوز**، لم يتلق مبعوثو القبائل الجواب الموعود في ذلك اليوم من قبَل القائد. لكنٍ منذ الصباح شرع بعض المتعصبين في تهييج َالسكان جهاراً. تعالت بالمسجد، مواعظ المدعو الحسين الزياني ضد المشاريع النصرانية. وبالشوارع تمٍ إيقاف المارة بخطاب شديد اللهجة من ولي كان يلبس أسمالاً،

اسمه زور [7]، مصحوباً بزنجي يبشر بالجهاد، اجتاح المدينة بدويون ذوو تصرفات مثيرة. هُدّد المغاربة المستخدمون لدى الأوربيين وأساساً من يعملون لدى الشركة الفرنسية. حذر الكثيرون من أنهم لن يعملوا أو حذروا سادتهم بأن يكونوا على أهبة الاستعداد وعدم الخروج. تشكلت تجمهرات، معقّبة على تهديدات القبائل. أعلن عن هجوم وشيك. هزّ شاب برتغالي، كتفيه وهو يمر بالقرب من تجمّع حيث كان يخطب زور بإسهاب، فتلقّى من الزنجي ضربة سيف على رأسه.

أعلَم قنصل البرتغال بالواقعة زميله قنصل إنجلترا، قيدوم السلك الدبلوماسي في غياب السيد **ماليرتي**. تمّ الاتفاق على تقديم شكوى، وحدّدت المقابلة مع **سي بوبكر** في الساعة الثانية. على الشاطئ هاجم أوغاد طفلاً فرنسياً كان يلعب وحيداً على الرمل، هو الصغير **دافيد** (David)، كان صبياً في الثامنة من عمره لم يتم إنقاذه إلا بتدخل خادم سابق حمَله نصف ميت. أصدر المحرضون على الفتن الأمر بالشروع في تصفية المدينة عبر تخريب طريق السكك الحديدية.

7 – يدعى سحور هو محمد بن العربي، ينظر علال الخديمي، **التدخل الأجنبي والمقومة بالمغرب: 1894 - 1910 حادثة الدار البيضاء واحتلال الشاوية**، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، الطلعة الثانية، 1994، ص.226.




****

**في الواحدة تحديداً**، خرجت قاطرة من الورشات من أجل نقل عربات المقلع، الواقع على بُعد كيلومتر تقريباً من أسوار المدينة. كانت الطريق تمرّ بمحاذاة الشاطئ ثم مبنى السور، قليل الارتفاع، إلى درجة أن البيوت تعلوه، يمكن للسكان رؤية القطارات الحاملة للمواد الأولية على طول مسارها، دون الخروج من بيوتهم. بينما كانت القاطرة محتمية بالمقلع ومنظمة خفر حراستها، احتلت عصابة من العرب خط السكك الحديدية على بُعد 200 متر من المدينة وغطته بالأحجار، وحينما عاد القطار بحمولته، توقّف الميكانيكي الفرنسي **ربا** [8] (Rabat) على مسافة قريبة عندما رأى ذلك العائق من الأحجار. لبد العامل في آخر عربة وقفز السائق ابن البلد **بن غازي** إلى خطّ السكك

8 – بل راتا لازار (Rata Lazar). [المترجم]

الحديدية لكي يزيل عنه العراقيل. اعترض المغاربة على ذلك. تظاهر العامل بالتجاوز، فتعرّض للقتل بضربات هراوة بينما هرب السائق. نزل الميكانيكي من آلته من أجل التفاوض، بحث عن سبيل للهرب، ناحية البحر، معتقداً أنه سيختبئ وراء صخور الشاطئ أو أن يبلغ الشاطئ. لحقوا به، رُجم، ثم قتله الرعاع وشوهوه ولعبوا بجثته. بما أن الرعاع هيّجهم الدم، فقد عادوا إلى طريق السكك الحديدية وتوجهوا نحو المقلع وهم يطلقون صيحات الموت. كان من بين العمال من جرى نحو البحر أملاً في اللحاق سباحة بالسفن الراسية بالمرفأ أو أن يتسلل بين الأحجار نحو البساتين، واختبأ آخرون في خلوات، ساعين إلى الدفاع عن أنفسهم داخل سياج، وأن يغلقوا على أنفسهم داخل بيت صغير حيث تم الإقفال على الآلات، لكن فوجئ بعضهم أو كشف مخبؤهم، كان عليهم أن يصارعوا بلا أسلحة العصابة التي هاجمتهم في البداية برشق الحجارة ثم انتهت بالهراوات والخناجر وجدّت في الانقضاض على الجثث. كان رئيس الورش السيد **ماسيي** (Massié) وحْده مسلحاً بسكين، دافع بشجاعة عن حياته، كان يقطر دماً، وعمل على كيفه بخصومه إلى غاية أن تسلّل واحد منهم خلفه وحطم جُمجمته. بعد القتل والنهب، جاب البعض المقلع وحملوا الآلات المناسبة لهم. عاد الآخرون إلى القاطرة أو العربات وأصرّوا على تحطيم العربات من أجل بيعها بشكل مجزأ. أهان الحشد الأجساد المشوهة لتسْع ضحايا، وجرّها على الرمل، وفتح بطن واحدة منها، وأدخَل فيها التبن ثم أضرم فيها النار. منذ بداية المذبحة، رأت السيدة **ميكري** الأم، ثم الدكتور **ميرل** المشهد من فوق السور وأطلقا ساقيهما للريح نحو قنصلية فرنسا.

حين علما أن السيد **نوفيل** يوجد في اجتماع مع القائد، طالبا بإخباره في الحين، ثم عادا إلى شرفتهما لمتابعة بقية الأحداث. ذهب السيد **فورنيي** (Fournier) **ممثّل** الشركة الفرنسية على عجل إلى **سي بوبكر** وأوقف المحادثة القنصلية، ومعلناً للمجتمعين عن الجرائم التي اقترفت. كان الحاكم قد قدّم للتو وعوداً جيدة بالأمن. عبّر عن انفعال شديد. وألْقى باللائمة على شرطته وطمأن بأنّه سيتخذ الإجراءات اللازمة. أراد السلك القنصلي والسيد **فورنيي** أن يتمّ ذلك على الفور وبواسطة جيش قوي. ارتبك **سي بوبكر** واعترف بأنه لا يتوفر على ذخائر ليوزعها على الجنود. لكن تم الإعلان من كل الجهات عن العديد من المقتولين وعن الوضعية المتأزمة للمحاصرين في البيت الصغير للمقلع. أنذر القناصل القائد ليتصرّف شخصياً وحمّلوه مسؤولية الدّم المراق. لاحظ **السيد فورنيي والسيد فيليب** (Philip)، وكيل شركة **باكي** (Paquet)، وجود خرطوش بالجمارك وعرَضا الذهاب لأخذه، وأن يكونا في مقدمة جنود الشرطة. رفض القائد المصعوق أن يذهب هو بنفسه ليواجه مثيري الفتنة ولا أن يترك السيد **فورنيي** يذهب، لكن لم يجرؤ على رفض استعمال خرطوش الجمارك. وزّعه السيد **فيليب** والسيد **فورنيي** بنفسيهما واستعجلا العسكر بالجري نحو الأماكن. زعم الجنود أنهم لا يتوفرون على أوامر، فتمّت العودة إلى **سي بوبكر** وأجبِر على إصدار أمر بالقمع.

شرعت الفرقة العسكرية الصغيرة في السير نحو المقلع. وجدت، بعد وقت طويل، أن الكل قد استنفد؛ خلّص تدخلها على الأقل العمال المحبوسين بالبيت الصغيرِ الذين كانوا يصرخون بأنهم ليسوا فرنسيين، وهو ما كان فعلا، كان التحريض ضد

فرنسا ومشاريعها قد أعطى كل ثماره؛ ضُرب العمال اعتقاداً أنهم كلهم فرنسيون، باعتبارهم عمالاً لدى الشركة الفرنسية للميناء. حافظ بعضهم على سلامتهم بعد أن استطاعوا أن يفسروا بالعربية بأنهم من جنسية أخرى. بُعيد ذلك تجاوزت الحركة كل التوقعات وامتدت إلى كل الأوربيين. لكن في البداية كان الفرنسيون وحدهم المهدّدين.

بناءً على معلومات القنصلية، جمع **سي بوبكر** الجثث وأحضرها أكواماً إلى الميناء. لكنه رفض، باسم عرف ديني، السماح لهم بالمرور عبر الباب قبل غروب الشمس. كان ينبغي الإقدام على خطوة ملحة من السيد **نوفيل** ليتراجع **سي بوبكر** عن قراره ويزود الموكب الجنائزي بحرس. كاد ذلك الحرس نفسه أن يجدد القتل. كان 15 فرنسياً متفانين قد ذهبوا إلى الميناء من أجل التعرف على هوية الأموات. عندما تم رفع القماش المشمع الذي كان يغطيهم، ظهرت التشوهات الرهيبة والبطن المفتوح لأحد العمال. عند رؤية ذلك، عبّر السيد **جوردان** (Jourdan) عن سخطه ورجع وهو يحرك قبضتي يديه. على الفور، اعتبر الجنود العشرة للحرس أو تظاهروا باتخاذ تلك الحركة الهجومية تهديداً، عرّضوا المجمُوعة الفرنسية الصغيرة للخطر. تدخل بعض الأشخاص يعرفون التحدث بالعربية كالسيد **فيليب وفورنيي**، اللذين كانا معروفين جداً بشدة وقدما تفسيرات. لم يتم إطلاق النار، لكن الوضع ظل مهددا جدا وتمّ التخلي عن حمل الجثث. ابتعد كل واحد بفضل النقاشات والمباحثات بين الكتيبة والمعاونين. فلم يتم التمكن من نقل البقايا البشرية المسكينة إلا خلال الليل، وتمّ وضعها بالقنصلية الفرنسية.

عبر الباب المفتوح، دخل كل من شاء. تباحث كل مواطنينا المهيّجين عاطفياً، حول الأحداث بالحديقة. بينما كان يجري النقاش حول أي إجراء سيتخذ، حرّر السيد **نوفيل** تقريره. كان السيد **ميرل** مكلفاً بنقله إلى طنجة عبر سفينة موكادور التي رفعت المرساة في مساء ذلك اليوم عينه. على السفينة نفسها ركبت السيدة **ميرل** وأبناؤها والأسر اليهودية التي كانت أكثر تخوفاً بسبب تعرض بعض محلات الملاح للنهب. بعد أن أحال السيد **سان أولير** الأمر إلى باريس، أرسل القائد **أوليفيي**. لُخّص ما قُدّم له من تعليمات شفوية ومكتوبة في: أن تصل **كاليلي** إلى الدار البيضاء في أقرب وقت ممكن؛ ستكلّف بعثته، باتفاق مع القنصل، بضمان حماية وأمن الفرنسيين وباقي الأوربيين ممن كانوا عرضة للخطر.

بعد ذلك سينقل السيد **ميكري**، الذي كان عليه أن يلتحق بمنصبه كنائب قنصل في اليوم الموالي، بالأوامر التكميلية للوزارة. ذهب المكلف بقضايانا بمدينة طنجة إلى السيد **الطريس**، مندوب السلطات بالمدينة، وبعد لفْت النظر الذي يستحقه قتْل مواطنينا، تحرّى من إجراءاته من أجل استتباب النظام. أسف الشيخ لعجزه. وأعلن عن نيته إرسال القائد **علال بن عبد الملك**، خليفة باشا طنجة، مع عشرة عساكر وبضعة بنادق وشيك بعشرة آلاف دورو، إلى المنطقة بحلول الرسالة التالية. أمام الإجراءات الشديدة من جهة السلطة الأولى في المغرب، ألم يكن من البديهي أن لا تعول **كاليلي** على نجدة لإنقاذ الكائنات البشرية التي كانت في خطر؟

تلك هي المأساة التي أعدنا جمع مشاهدها ونحن نتحدث، تارة بالمطعم وتارة بكوثل السفينة، بينما كانت السفينة تسير على

عجل في هدوء الليل نحو المدينة المُدماة، يا ترى ماذا حدث منذ ليلة الثلاثاء، يعني خلال يوم وليلتين، تاريخ آخر المستجدات؟

****

# الخميس 1 غشت 1907م

في وقت مبكر على سطح **كاليلي**، كان كل واحد يبحث بواسطة منظاره عن البر وعن إشارات القنصلية. لكن نسمة هواء خفيفة، مترددةٍ في الصيف، لم تسمح لنا بتبيّن المدينة إلا في السابعة صباحاً.

تمتد الدار البيضاء، من نظرة من السفينة، على ساحل مسطح ملتصق بتربة صخرية متقدمة في البحر ومبدية فقط تجويفين ضيقين؛ يشكل واحد الميناء والآخر، موجود خارج السور، هو جون صغير للقوارب الصغيرة أو جون **سيدي بليوط**، المأخوذ من اسم ضريح ولي مسلم للمدينة: برز مسجده من بعيد بجانب العروة حيث تودَع القوارب الصغيرة، لكن داخل الحيطان، بواسطة نخلة طويلة مائلة، تقريباً مجردة من الأوراق. المدينة مغلقة، محاطة بأسوار، بما في ذلك جهة الشاطئ، بلا ضواحي واضحة، مكونة من بيوت بيضاء، متراصة بإحكامٍ، شبيهة بمكعبات الجير المثقوبة. توجد هنا وهناك، وخصوصاً بالوسط، بعض البنايات لها طوابق، وثلاثة أو أربعة صوامع بلا طابع متميز، تتجاوز بعض القلاع المربعة، من بينها القلعة الخاصة بالقنصلية الألمانية، السطوح المجاورة.

يتضخم السور المحاذي للشاطئ الرملي، نحو وسطه، مشكلاً نوعاً من البُريج البارز متوج بمدافع ويشرف على الميناء. توجد

يسار البُريج البارز قبّة مغلقة بباب ذي مصراعين يفتح الطريق الوحيدة الموازية بين الميناء والمدينة: إنه باب إدارة الجمارك. بعد المبنى، يتسع الجون الصغير **لسيدي بليوط**، ثم يُشاهد المقلع المشؤوم الشبيه بكثيب رملي مشتت اختلط رمله برمل الشاطئ.

على اليمين تتوقف كتلة البنايات المأهولة، أمام تحويطة مقفرة محاطة بسور حديث البناء، بمنعطفات زوايا، إنه موضع حي مغلق كان مخصصاً فيما مضى للأوربيين. وبسبب رفضهم أن يتركوا محتجزين مثل اليهود بالملاح، ظل المكان متخلّى عنه، يُستخدم من وقت لآخر مضرب خيام للمحلّة. استوى حول المدينة، بعد منطقة مخضرة للبساتين، بتدرج سهل شاسع، بالكاد ما هو متموج، على مدى البصر، لا توجد به شجرة أو نصب تذكاري. بدت البادية مغبرّة تحت شمس حارقة جفّفتها ومذهّبة بتبن الحبوب.

عند الاقتراب، تبيّننا بالقرب من عروة **سيدي بليوط** حشداً من العرب يشورون وكان معظمهم ما يزال يصر على قطع القاطرة المقلوبة ونزع بقايا سكة **دكوفيل** (Decauville). في ضواحي باب مبنى الجمارك، كان يوجد تجمع بمظهر أقل خشونة رثّ الثياب بشكل كبير وبعض الجنود، معروفون بمعاطفهم الحمراء، يبدو أنهم يراقبون حركات السفينة. توجد في أقصى الميناء بعض القوارب الصغيرة الجانحة. وعلى المرفأ، بدت ثلاثة قوارب بضائع من الأسطول الفرنسي الإنجليزي والألماني معرقلة للمرور. كانت بعض الأعلام ترفرف فوق المباني القنصلية. تعلو مبنى قنصليتنا قلعة صغيرة مُربعة قُرب حصون كانت منكسة العلم.

أرسينا في الثامنة والنصف على بعد 1500 متر من المدينة، أمام باب الميناء. أشارت القنصلية في نفس الوقت بواسطة رمز دولي بأن يذهب السيد **نوفيل** إلى السفينة. قبْله، اقترب مندوب القنصلية الألمانية المكلّف بتفتيش السفينة.

بالمغرب كل قنصل محترف يضطلع بهذه الخدمة بالتناوب وتحديداً، في شهر غشت، ترك الأمر لعامل ألماني طلب من الدكتور الرخصة الصحية. أعلن هذا الأخير أنه لا يوجد مرضى على متن السفينة، وبما أن **كاليلي** سفينة حربية قادمة من طنجة فإنها لا تتوفر على رخصة لتقدمها. كان محرجاً قليلاً لعدم استطاعته القراءة، كما كان سيفعل بخصوص الرخصة، وعدد الطاقم والمدافع والوزن ومعلومات أخرى أيضاً، أبدى الشاب فضوله بسؤاله عن عدد الرجال الموجودين في السفينة، وهل ستصل سفن أخرى. اندهش حين وجد **كاليلي** مصبوغة بلون رمادي مزرق لأنه رآها في السنة الماضية بيضاء. وسُئل هو بدوره عن حالة المدينة، لم يعرف كم عدد القتلى الذين سقطوا في يوم 30 يوليوز ولا جنسياتهم. أمام هذا التحفظ المضاف إلى الرغبة في أن يحصل على معلومات، حرّر الدكتور **بروني** شهادة صحية، خالية من البيانات، و لم يلح وكيل الصحة.

****

**في التاسعة** جاءِ مدير القنصلية، السيد **نوفيل**، وهو طالب نائب قنصل، مصحوباً بالسيد **بيرتي**، وكيل خدمات شركة الاقتراض المغربية. كان الاثنان جد متأثرين. كان السيد **نوفيل** ببزة المراسيم. حينما ذهب هو للتباحث مع القائد، طلبنا من السيد **بيرتي** (Berti)

أن يحيطنا علماً بما وقع من أحداث بعد ذهاب السيد **ميرل** (Merle) إلى طنجة.

كان الأهالي، الفاعلون أو الشهود على المذبحة، قد عادوا إلى المدينة، يتفاخرون بشجاعتهم، يتحركون كسادة الشوارع ويطلقون صيحات موت ضد الأوربيين. كانت النساء تطلقن الزغاريد التي تردد في الظروف الخطرة. في رمشة عين أغلق التجار واجهات محلاتهم وانتشر الذعر بين الأسر اليهودية التي عومل بعضها بعنف ونهب. هرب الأكثر عرضة للخطر نحو سفينة **موكادور**. بلغ الذعر إلى درجة أن ترك اليهود أنفسهم عُرضة لابتزاز الجنود ونقالي الميناء من أجل أن يركبوا مهما كلّفهم الأمر. أما الجالية الفرنسية فقد اجتمعت بالقنصلية أو بمنازل يسهل الدفاع عنها لكي تقضي ليلتها. في اليوم الموالي 31 يوليوز، تحكم الشاويون في المدينة، وصارت تحت رحمة القبائل. احتل القادة بيت القايد **بوبكر**. دوّت الشتائم والصرخات المرعبة تجاه الفرنسيين في كل الأماكن: قرر لاجئو القنصلية أن يتخذوا من السفن الموجودة على المرفأ ملجأ.

وبما أنه كان هناك خطر في الوصول إلى الميناء دون حماية وسط حشد مرعب؛ ذهب السيد **نوفيل** إلى القايد ليطلب منه حرساً. كانت المقابلة حامية الوطيس. كان مندوبو القبائل يتكلمون ويناقشون بدلاً من الحاكم العاجز.

وأخيراً وافقوا على إرسال حرس، بشرط أن يغادر الفرنسيون وحدهم المدينة، وقالوا إن باقي الأوربيين لن يتعرضوا لأي خطر. ثُبّط عزمهم. وبعد انتظار العسكر الذين يؤطرونهم عدة

ساعات، قرر حوالي مائتي شخص، رجال ونساء وأطفال، الذهاب إلى المرفأ، وغادروا قنصلية فرنسا، ومروا من الشوارع تحت التهديدات والإهانات التي لم توجه إليهم إلا باعتبارهم فرنسيين أو محميين فرنسيين. أوقفوا ثلاث مرات تحت ذريعة الزحمة، وفي الواقع كان ذلك من أجل الاستمتاع برعب النساء اللواتي كن يتساءلن هل هن ذاهبات إلى مجزرة أم إلى مصير أسوأ؟ أظهر بعض الأهالي أسلحتهم وكانوا يتظاهرون باستعمالها بحركات فرح فظة. كان بعض الأوربيين من جنسيات أخرى ينظرون من النوافذ مستهزئين بآخرين. وأخيراً وصل الموكب إلى الشط الرملي. هناك تسلّى الجنود وأصحاب القوارب بمكر في تأخير الإركاب الأكثر استعجالاً من أجل ابتزازهم مالياً ما أمكن. ابتعدتْ المنقالات تحت الشتائم والصراخ. استقبلتهم سفينة **كوستانتان** (Costantin) من شركة **هارفيز** شبه الجزيرة، وسفينة **واد سبو**، من شركة **باكي** وسفينة **دوميتيان** (Demetian) الإنجليزية. **لم** يتبق بالقنصلية، لدى السيد **نوفيل**، سوى عدد قليل من الرجال، هم السيد **فورنيي** (Fournier) **وفيليب** (Philip) **وكينار** (Guinard) **وسوفرون** (Soufron) **ومرلان** (Merin) **وداريغ** (Darrigues) **وميرسي** (Mercié) وامرأتينِ والسيدة **ميكري** الأم رفقة ابنها الشاب ذي الخمسة عشر ربيعاً، والسيد **فورنيي**، الذين قرروا أجمعين ملازمة الجناح إلى آخر رمق. أزال **سي بوبكر** الحرس الذي كان قد موضعه في اليوم السّابق أمام المؤسسات الأوربية مقابل تعويض مالي. كما أن مخفر القنصلية، الذي قد أدّى 100 فرنك، اختفى.

علم **مولاي لامين** عمّ السلطان، الذي كان معسكراً على بُعد ساعات من الدار البيضاء رفقة محلّته، بالأحداث وسارع نحو

المدينة، وعندما تبيّن له عجز الحاكم، حلّ محله في انتظار أن يوافق المخزن على اقتراح تعويضه بقائد أولاد احريز. أخبر على الفور القناصل بعزمه على ضمان الأمن بواسطة رجال اصطحبهم معه وبتعيين حاكم مؤقت. أرسل خليفته سي **علال بن عبو**، لطمأنة السيد **نوفيل** وليقول له إنه في حالة إذا ما لجأ إلى المرفأ، سيتولّى بنفسه التكلف بقنصلية فرنسا. طبعاً، أجيب بأنّه لن يتم التخلي عن العلم [الفرنسي] تحت أي ظرف من الظروف. لكن **مولاي لامين** قدّم دليلاً على استعداد طيّب بوضع فرقة عسكرية أمام القنصلية خلال الليل. حين كانت سفينة **كاليلي** في متناول النظر، في الصباح هز همّ المسؤولية العجوز أكثر. ذهبت قوته العسكرية لحراسة أبواب المدينة، ومعها تكليف يقضي بمنع سكان القبائل من الدخول إلى المدينة. بدأت التصفية الداخلية بإيقاف وإبعاد الأفراد المشكوك فيهم. كان مثيرو التمرّد، ينشرون، خوفاً من قمْع الفرنسيين، إشاعة عند أدنى ظهور للفركاطة، بأنه ستحدث مجزرة عامة للأوربيين بالدار البيضاء. لم يكن الأوربيون غير الفرنسيين الذين كانوا سيصبحون رهائن: قلقين حتى ذلك الحين، ضغطت الجاليات الأجنبية المهددة بدورها من أجل تجنب تدخل قوي للفرنسيين أو وضع حد لتدخلهم. بدا هؤلاء الأخيرون، بالنسبة للسكان، غير قادرين على الاقتصاص، واستعادة السيطرة على الجمارك وعلى أشغال بناء الميناء.

في انتظار ذلك، حرص **سي بوبكر**، بالتراضي، على الدفع شخصيا. صاحب بنفسه السيد **نوفيل** إلى الميناء، حين ذهب إلى متن **كاليلي**. كان عليه أن ينتظر من أجل اصطحابه، كي يمنعه من طلب حرس من البحارة. وافق القبطان **أوليفي** على ما يجب أن

يتخذ من تدابير مع السيد **نوفيل** الذي كان يعرفه منذ زمن بعيد لأنّه أقام مع والده، القنصل العام بجبل طارق، ومع أسرته أحسن علاقات الصداقة. بما أنه لم يتم ضمان أي أمن لمواطنينا، إذ أن القنصل نفسه لم يكن قادراً على الخروج إلا مرفوقاً بالقايد، وأن الحركة كانت تهدد بأن تمتد ضد كل الأشخاص الذين ظلوا بالبر، كانت سفينة **كاليلي** متجهة لتزويد القنصلية بحرس من البحارة إلى حين التعرف على ترتيبات الحكومة. كان الأمر يتعلق في ذلك الحين بمسألة فرنسية حصرية، بضمان احترام ممثلنا والملجأ الذي أقامته القنصلية.

لم ندع احتلال أي شيء بالقوة، وإملاء شروط أو القيام بإنزال ينتهك حقوق السلطات المغربية. تم الاكتفاء بأن تحمي نفسها من عودة مثيري الفتنة أو من المجرمين ومن العداء الذي أعلنت عنه القبائل. إن كانت قنصليات أخرى تعتقد أنه من الواجب أن تتخذ أيضاً احتياطاتها. اقترح القبطان **أوليفيي** تزويدهم بحرس. لكن ضعف عدده فرض حصر عدد القنصليات التي ينبغي حمايتها في اثنتين. كان على السيد **نوفيل**، إذن، أن يستهدف السلك الدبلوماسي بهذه الترتيبات وأن يطلب من القايد العبور الحر لفرقتنا العسكرية. تم الاتفاق على سلسلة من الإشارات من أجل إخبار **كاليلي** بموافقة **سي بوبكر** أو إنذاره بأنه يجب الذهاب تلقائياً لحماية القنصلية في حالة ما إذا كان هناك خطر مُلح. أوصت القيادة شكلياً بالتأكيد للحاكم أن كل التحفظات أجريت حول المسؤولية الجسيمة التي يتحمّلها بالنسبة للمجزرة وأن عدم كفاءته عجزت عن منعها، وأن عملياتنا لم تكن أبداً موجهة ضد ممثل السلطان، وأن يعاد تأسيس سلطة سيده أو بالأحرى،

نريد فقط، كما ينبغي عليه هو نفسه، ضمان الحماية لمواطنينا ضد المتمردين. وأخيراً أجاب بأن يتولى من الآن فصاعداً حماية حياة رعايانا." من أجل مساندة فورية لتمثيلات **كاليلي** وتأكيد عزمه على عدم البقاء خاملاً، أمر القائد الباخرتين، إحداهما ألمانية والأخرى إنجليزية، كانتا متموضعتين بين البر وسفينته، برفع المرساة، والتموقع في الخلف حتى يكون نطاق إطلاق النار والرؤية واضحين.

ثم قرّر أن يُقاد السيد **نوفيل** إلى الميناء ليس في قاربه المغربي، وإنما في قارب صيد، يحرسه قاربان مزودان برماة ويجره زورق حربي. بينما كان يتم اتخاذ تلك الترتيبات جاء القنصل ليصافح تشكيلة الضباط المربعة. عرف منهم شخصياً ثلاثة، استقبلهم بترحاب داخل بيته وعاملوه كزميل. تمت التسلية بمتابعة مشهد كوميدي للاختطاف عبر كوات، كان يجري في الطريق المقطوعة. كان يراد إبقاء النقالة والمجدفين المغاربة الذين اصطحبوا السيد **نوفيل** تحت اليد إلى غاية عودة هذا الأخير إلى البر. كان يتعلّق الأمر بالاستيلاء عليهم وعلى مراكبهم. لكن بيّن لهم أنّه لا يراد بهم أي شر. تمت الإشارة إليهم بالاقتراب كما لو أنهم سيعيدون راكبهم. بمجرد ما وصلوا على طول الطرق، رأوا سقوط بحارة كانوا لابدين على سلم العربة، قفزوا مبتسمين إلى القارب. أمسك البعض المجاديف، ودفع البعض الآخر العرب الموجودين على السفينة، بعجلة كبيرة، إذ أن أصحاب القوارب المندهشين لم يفكروا حتى في فتح أفواههم للاحتجاج. صعدوا في رمشة عين إلى الجسر، كانوا مرتبكين قليلاً وغير آمنين، لكنهم لم يروا سوى وجوها سعيدة، فصمموا على الضحك أيضاً دون

أن يعرفوا السبب. وُضعوا في زاوية مع الخبز والزيت والسجائر، وأوضحَ لهم أن قاربهم سيُرجع لهم فور وصول السيد **نوفيل** إلى البَر. استأذن القنصل، إذن، شيّعه القائد وكل الضباط الذين صافحهم المرشد **ليج** (Leygue) المكلف، كضابط رتيب، بإدارة قوارب الحرس.

****

**كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة صباحا.** احتفظ القائد كراكب بالسيد **بيرتي**، وهو وكيل القرض المغربي، الذي نصّب منذ 15 يوماً الرقابة الجمركية بالدار البيضاء. استُقبل السيد **بيرتي** بشغف بالمربع، لأنه كان رفيقا مرحا، وكان على دراية بشؤون الأهالي التي عالجها كثيراً بتونس.

كانت القوارب، الممتلئة بذوي الياقات الزرقاء حول القنصل، قد انطلقت، ما أن وصلت مثل الجالية الفرنسية، اللاجئة في الباخرتين اللتين غيّرتا مكان الإرساء، التي وافقت على الإجراءات التي اتخذها القائد **أوليفيي**. حالما وصلت القوارب من مسافة قريبة من الطريق، دوّى هتاف رائع: مرحى! مرحى! مرحى! تحيى **كاليلي!** صرخ البؤساء، المتكدّسون فوق الجسر، محركين مناديل وقبعات.

رأينا بواسطة منظارات، حركة غير معتادة للمغاربة على الشط الرملي. إن صرخات الفرنسيين في الميناء، والبحارة المسلحين النازلين من السفينة، واختطاف المنقال الأهلي، وتهجير السفن التجارية لم تفلت منهم، وبدأ القلق من دفع التكاليف يزعج

الشخصيات البارزة. أيضاً حينما وضع السيد **نوفيل** والدكتور **ميرل** أرجلهما على الشط الرملي، حيث نزلا وحيدين، استقبلهما **سي بوبكر** مصحوباً بأمناء الجمارك وحاشيتهم، مع تكرار التحايا والملاطفات والوعود بالأمن. اقتيدا بأبّهة إلى غاية القنصلية بإعادة الطمأنينة عبر اتخاذ الإجراءات الشديدة من أجل إخلاء المدينة من اللصوص، بما أن فرنسا كانت رحيمة. في الواقع، حالما كان رجال القبائل يقدّمون تقريراً عن حركات الفركاطة، عاد كثيرون منهم إلى البادية. تركتهم الفرق العسكرية التي موضعها **مولاي لامين** بالأبواب، يخرجون ومنعتهم من الدخول. أوقفت الدوريات، التي كانت تجوب الشوارع، قطاع الطرق. كانت الحوانيت مقفلة؛ طُلب من السكان البقاء في منازلهم. لم يهدأ قلق اليهود بالملاح، بل على العكس، لقد أحدث الخوف حشداً من الإشاعات المذاعة من باب إلى باب: ستنفجر الدار البيضاء، بأقل من مكافأة موجهة لتعويض الفرنسيين. طبعاً فرض العرب على اليهود تزويد المبلغ الكبير. أسفوا للهروب من النهب ليقعوا في المساهمة في الحرب أو أن يختاروا بين الفوضى والحريق: من أجل الانفلات من الاثنين تواصل النزوح الجماعي. تمّ إدراك الأمر، تم الاختباء وتم الدفن، ثم ذهبوا إلى السفن الموجودة بالمرفأ. وجد فيهم الجنود وأصحاب قوارب الميناء ضالتهم. تبعاً لغنى الأسرة والوجوه المضطربة إلى حد ما، أعلنوا من 1 إلى 100 دورو [9]، سواء من 4 إلى 400 فرنك من أجل السماح بالإركاب. بمصلحة الجمارك، وجد الأمناء الذين كانوا مغتبطين بالتخلص

9 – من الكلمة الإسبانية (Duro) بمعنى صلب وهي صفة أطلقت على قطعة نقدية تعود إلى سنة 1497 [المترجم]

من مراقبهم الفرنسي، وأضخم بيوت التصدير الأجنبية، الوقت المناسب حيث تم الاتفاق على الرسوم بطريقة حسنة، فعجّلوا باستغلالها. كانت ذخائر ضخمة من الحبوب تسرّب نحو السفن الموجودة بالمرفأ.

بالخارج، بالمقابل، خُيّب أمل القبائل في الحصول على مكافأة ضخمة من قِبل الحاكم لعدم وجود نهب جزئي. كانت القبائل تجمع آلافَ الفرسان من أجل احتلال المدينة، كان الصعب هو التفاهم، وتوجيه أولٍ الضربات، تمّ التفاوض وتمّ الرد على التهديدات الأكثر إرعاباً منٍ أجل إحباط العدو. جهز **مولاي لامين** 500 رجل فقط لم يكن واثقاً منهمٍ. كان من المؤكد أنه لم يتقاضٍ أي واحد من أولئك الفقراء أجراً، فلم يقاوم إغراء النهب حالما توفر له. كانت الجاليات الأجنبية منقسمة بين تخوفين: تخوف من مثيري الفتن منذ أن عرض الإثارة ضد الفرنسيين لجمعهم، والتخوف الثاني من رؤية وسائل الحركة المنافسة المربكة لمشاريعهم. لوحظ ذلك في نتائج الاجتماع الذي عقد فيما بعد الزوال بين الوكلاء القنصليين الذي استدعى السيد **نوفيل** قصد التباحث حول القرارات المتخذة في الصباح على متن **كاليلي**. اقترح أن يمنح الحرس السلمي لقنصلية فرنسا، بواسطة بحارة، المغاربة فرصة للتفكير ويدفع السلطات للقيام بآخر المجهودات من أجل النظام وجعل مثيري الفتن مترددين، وعند الاقتضاء ضمان ملجأ، لكل الأوربيين، يحميهم منٍ مثيري الفتن وهو، على كل حال، إجراء لحماية الفرنسيين أساساً من المعاملات التي تعرضوا لها وما يزالون، وأخيراً من أجل المستقبل، توقع أي تعقيد: أراد اجتماع القناصل إنزالاً حربياً، ومظاهر حماية دولية

مع احتلال جزئي للدار البيضاء ومن البديهي أن **كاليلي** لم تكن لتحقق ذلك و لم تفكر أبداً في تحقيق ذلك بقواها الخاصة. قادت هذه الخشية، المبالغ فيها أم لا، إلى إنذار الحاكم:

1 – بأن يجعل طريق السكك الحديدية سالكة،

2 – وأن يضمن مدخلاً حراً إلى الميناء وأيضاً عبور الفرنسيين والأوربيين.

ترجم هذان الشرطان على الفور للقايد **سي بوبكر** الذي حضر الجلسة وبادر بتقبلهما.

في تلك الأثناء، على السفينة، جرت التداريب التي كان من المقرر أن تتم فيما بعد الزوال حسب جدول الخدمة، كما العادة. شرع أصحاب البنادق في عملية الإنزال. وشرع المدفعيون في القيام بمراقبة القطع. تُوبعت هذه التحركات بالمنظار بانتباه من قبل السّفن الموجودة بالميناء، وأساساً من قبل السفينة الألمانية التي فَهمتْها، بلا شك، كاستعدادات ميالة للحرب، لأنها أُشارت لـ**كَاليلي** بواسطة السنن الدولي: "الطراد ما نواياكم؟" أُجيبت بأدب: "لماذا تطرحون هذا السؤال؟" وتوقفت المحادثة هناك.

****

**في الرابعة**، أحضر السيد **نوفيل**، مصحوباً بالسيد **مادن** (Madden) قنصل إنجلترا، محضِر المؤتمر القنصلي. كلّف القائد **أوليفيي**، مشيراً إلى القرارات، ممثلنا بأن "يشير من جهته إلى الحاكم الذي وافق مؤقتاً على إرجاء ما تم الإعلان عنه من إجراءات في الصباح،

لكن كان ينوي في اليوم الموالي الذهاب إلى القنصلية حيث جاء **سي بوبكر** لاستقباله برصيف المرفأ من أجل اصطحابه إلى غاية بيت فرنسا حيث سيعتذر للقُنصل والقائد عن ما وقع من أحداث شنيعة."

حين غادر قنصل إنجلترا رفقة السيد **نوفيل** الشاطئ، أُديت لهما التشريفات المناسبة. تظاهرت المدافع المغربية بالاعتقاد بوجود تحية بالبر فردت بنفس عدد الطلقات. بعد وقت قصير، أراد الحاكم، وهو فَرِح بتفادي أي إظهار للفركاطة، أن يرسل له المونة، وهي هديةَ مكونة من موئن متنوعة: ثيران وأكباش وفواكه، إلخ أديت، فضلاً عن ذلك، بكرم. أرجع السيد **نوفيل**، المنذر، القاربَ الحامل لهدايا ليست في وقتها، إلى الميناء وأعلن: "ليذهب قارب إلى الشاطئ من أجل الإتيان بأطعمة كهدية من القائد، أرجعه القنصل؛ وعدني القايد بسحب سُكان القبائل هذا المساء قبل التاسعة؛ لكنّي أعتقد أنه غير قادر على ذلك؛ على الأقل من المُتوقّع أنّنا سننتظرك غداً في الساعة التاسعة."

كان على الوسيط المكلف بالاتصالات الجوية، هو العريف البحري **طارديفل** (Tardivel) لمركز نوتي الإشارة: المثبت على سطح القنصلية، أن ينقل، في النهار عبر إشارات بذراعه وفي الليل عبر الفانوس، الرسائل التي ترجمها نوتي الإشارة بالشاطئ. في الساعة العاشرة، خيم هدوء المرفأ، بلا شك، أيضاً على البر، لأن طلبات المعلومات التي تمت محاولة إرسالها ظلت بلا جواب.

# الجمعة 2 غشت 1907م

لم تستأنف الاتصالات بين القنصلية و**كاليلي** إلا في السابعة صباحاً. أشار السيد **نوفيل**: "لقد كتب لي القائد وأبلغني أنه تم الشروع في طرد سكان القبائل، والباقي سيذهب هذا الصباح؛ أنتظركم في التاسعة."

كان **مولاي لامين** يحاول تنقية المدينة؛ لكن كان الهيجان يتضاعف في الضواحي وينتشر. أيقظت الأخبار المنقولة إلى غاية مازكان نفس الغرائز، ونفس آمال الاضطراب والنهب. بعث نائب قنصل إنجلترا بمازكان السيد **سبيني** (Spinney)، مترجم الجالية الأوربية رسالة إلى أخته المحتجزة في الدار البيضاء إلى جانب مريضٍ. وصلت الرسالة إلى السيد **نوفيل** فأعلن في الساعة الثامنة: "طالب نائب قنصل إنجليزي بإرسال سفينة حربية. أقترح أن نرسل [سفينة] **واد سبو** رفقة ضابط وبعض الرجال." كانتْ **كاليلي** هي السفينة الحربية الوحيدة الموجودة على الساحل، كان ينبغي الاستنجاد بسفينة تجارية لتكون ملجأ بمرسى مازكان، وكان القنصل قد اختار سفينة فرنسية من شركة **باكي** (Paquet) استطاع استئجارها بسهولة. باعتقاد القائد **أوليفيي**، أن سفينة بخارية تجارية، إذا حكمنا على الأحداث التي وقعت بالدار البيضاء، لن تهدئ بما يكفي المغاربة، اقترح أن يذهب بنفسه، لبضع ساعات إلى مازكان، وأن يثبت وجوده هناك الذي كان

دوره الحالي محدودا. عارض القنصل، لأنه حسبَ رأيه، لا تستطيع **كاليلي** مغادرة الدار البيضاء دون التسبب في خطر على الأوربيين؛ لكن تم تعليق انطلاق [سفينة] **واد سبو**.

تبعاً لوعده في اليوم السابق، والذي تم تأكيده أيضاً في الصباح، ذهب القائد إلى الميناء في الساعة التاسعة. كان قد طلب من السيد **لوري** (Luret) وضابطين مرافقته. عيّنت تلك الجولة الضابطين الميكانيكيين، السيدين **بارو** (Barroux) **وأرنو** (Arnaud). رافقهما قاربان مسلحان، لأننا لم نر على الشاطئ الرملي الشخصيات الرسمية التي كان ينبغي أن تأتي لملاقاتهم. وأخيراً وصل **سي بوبكر** والأمناء وبعض الوجهاء وحرس من الجنود، وتوجّه الموكب نحو قنصلية فرنسا. لم تكن الجلسة مهيبة. التحق بعض الفرنسيين، بقوا بالبر، بالاجتماع، وتحدثوا دون التشاور مع بعضهم البعض أو مع القنصل. كانت الآراء الواردة موضع ترحيب، لقد كانت أشبه بالمحادثات أكثر من كونها سلطة تملي شروطها. بما أن الحاكم قد كرر بأنه سيكفل النظام، طلب السيد **فورنيي**، مدير أشغال الميناء باستئناف العمل. أعلن القائد بسرعة أن الأمر غير ممكن. أعلن السيد **لوري**، ممثل القرض المغربي المضمون على الجمارك بدوره، عن استئناف المراقبة. كانت هناك صعوبة جديدة. اقترح القائد **أوليفيي** وضع حرس بالقنصلية وأن يتم التوجّه رفقة **كاليلي** إلى مازكان لنجدة الأوربيين. يجب ألا نفكر في الأمر أيضاً: لا تسمح الوضعية لا بالابتعاد ولا بالإنزال ولا بأي تغيير في الوضعية التي يُشتكى منها: في هذا الأمر، وُعد بأمن لا يطمئن أحداً بترك المطرودين على المرفأ. الحل الوحيد الذي قُبل هو إرسال رقاص سيطلب أخباراً تكميلية من نائب قنصل

فرنسا بمازكان. في لحظة رفع الجلسة قرر **سي بوبكر**، بشكل عام، تقديم اعتذارات وتأسفات مع طلب العفو من فرنسا.

بالتحديد تمّ حينها دفن النعوش المحتوية على أشلاء العمال الفرنسيين المقتولين بحديقة القنصلية. رأينا من النوافذ الأهالي المكلفين بذلك العملِ الحزِين يقلبون الأرِض على عجل دون معاون. كان صحيحاً جداً أن الهدوء قد ضُمن، إذ لم نجرؤ على حمل الأموات إلى غاية المقبرة الواقعة بباب المدينة التي كانت قد اجتيحت ولوثت ونُهبت من قِبَل الشاويين. بعد أن تمت الإشادة بضحايا 30 يوليوز، بالقرب مَن حفرتهم المملوءة، عاد القائد والضابطان إلى الشاطئ في الساعة الحادية عشرة.

****

**في الواحدة**، أرست بالميناء الباخرة الإسبانية **خاميس هاين** (James Haynes). لقد حملت الخليفة، الذي أرسله **سي الطريس** باسم السلطان والسيد **ميكري**، نائب قنصل الدار البيضاء الذي التحق بعمله بعد أن ترك زوجته مريضة لدى أسرتها بجبل طارق. غادر السيد **ميكري** طنجة يوم أمس فاتح غشت في الخامسة والنصف مساء. استطاع أن يتلقى من السيد **سان أولير** أول التعليمات من باريس وتعرّف على الإجراءات الصارمة للحكومة. لقد كسب مسبقاً عطف **كاليلي**، لأنه صهر السيد **نوفيل**، القنصل العام لفرنسا بجبل طارق، وأسهم في إرساء ما يُقيمه الضباط من علاقات ممتازة مع أسرته. انطلاقاً من رتبته، عهد إدارة قنصلية فرنسا إلى صهره السيد **نوفيل**؛ بالإضافة إلى ذلك، بسبب هذه القرابة فالثقة المتبادلة وحرية تبادل الآراء والتخلي عن الشكليات الرسمية بقيت على حالها بينهما وبين السفينة.

فيما توجه السيد **ميكري** مباشرة من [سفينة] **خاميس هاين** إلى **كاليلي**، علم لدى القائد بآخر الأحداث، حمل نوتي المراقبة، في الساعة الثانية عشرة وعشر دقائق، الإشارة التالية من القنصلية: "أراد بعض سكان القبائل في هذا الصباح خلع باب من أبواب المدينة. استطعنا بصعوبة الدفاع عن ذلك الباب. وهكذا قُتل جندي من جنود السلطان ومتمردين. طلبتُ من القايد إخلاءها."

****

**فيما بعد الزوال**، تابعنا بالمنظار سلسلة من الاشتباكات الصغيرة بين ثلة من جنود **مولاي لامين** وفرسان القبائل. في الحقيقة، **لم** يتضرر أي أحد ضرراً كبيراً. تم السير في موكب تنزّه على حصان بإثارة الكثير من الغبار؛ أُطلقت صرخات وإيماءات واستفزازات مهينة؛ من وقت لآخر، أُطلقت طلقة بندقية دون اتجاه، تم الهرب بسرعة كبيرة. حين تم الانخراط في ذلك العمل الجريء خلال ساعات، عاد الأكثر تعباً لأخذ قسط من الراحة. في بعض الأحيان كانت بعض الرصاصات الطائشة تخلّف ضحية ما.

طلب السيد **ميكري** بالنزول أرضاً وحده وأن لا يستقبله أحد. ركب السفينة في الساعة الثانية وخمسة وخمسين دقيقة. تلقينا في الثالثة ودقيقتين من القنصلية الإشعار التالي: "أعلمني القايد أن القوارب التي غادرت الشاطئ ستعرض نفسها لبعض طلقات بنادق من قبل البدو." تم على الفور إبلاغ الضابط المسؤول عن قيادة السيدَ **ميكري**: "احذر عند النزول." وإلى السيد **نوفيل** "ذكر القايد ما إذا سدّد الرّحّل تجاه السفن، فإن **كاليلي** ستسدّد نحوهم قذائف." ربما كان الماكر **سي بوبكر** يرغب فقط في منع البحارة

من مرافقة السيد **ميكري** إلى غاية القنصلية. في جميع الأحوال تمت العودة دون وقوع أي حادثة تُذكر. خارج الأسوار وقرب الباب واصلت ثلة جنود **مولاي لامين** دورياتها الاستطلاعية إلى غاية حلول الليل كي تظهر للقنصل رغبة القايد.

****

**قرابة الساعة الرابعة،** تلقّت عصابة من البدو، لم يوقفها صراخ المحلة الشريفة، طلقات بنادق وتراجعت إلى الوراء.

****

**في السادسة** أعلن السيد **ميكري:** "أفسح القايد الطريق ووعدني بترك حرس **مولاي لامين.**"

حظينا في تلك الاثناء بزيارة السيد **فورنيي** المدير النشيط والشجاع لأشغال شركة الميناء. على الرغم من أن مشروعه كان مستهدفاً أساساً من قبَل قواد الحركة، لم يكن يريد التخلي عن ورشاته وقرر البقاء في المدينة رفقة زوجته. كان مستقوياً باستقامته وإنصافه لدى العرب، لم تخوّفه التهديدات وتم احترامه لأنه قوي الشكيمة.

على العكس من ذلك انطلقت 350 أسرة يهودية في السابعة مساء نحو طنجة، على متن سفينة **كوستانتان** التابعة لشركة

**هافريس** (Havraise) شبه الجزيرية. قبل الاستعداد للإبحار، نزل بعض الفرنسيين الذين كانوا لائذين بالشاطئ منذ يومين من أجل العودة إلى المدينة: كان من بينهم السيد **نيسان** (Naissant) المشرف على أشغال الميناء و**ألكسندر** (Alexendre) **ممثل** بيت الأخوين الوليين **كويو** (Guyot) وبايترال (Peytral).

****

**خلال العشاء، دقت** القنصلية ناقوس الخطر (في السابعة و35 دقيقة): " أخبار سيئة قادمة من الداخل كونوا منتبهين لإشارات هذه الليلة." تساءل القائد على الفور (في الثامنة والنصف): "هل تخشون أن تهاجموا بالقنصلية هذه الليلة؟"

وكان الجواب (في التاسعة والنصف): "لا، ولكنٍ الأخبار أكدت أن القبائل ستهاجم الدار البيضاء يوم غد صباحاً؛ كونوا على استعداد." قدّر القائد **أوليفيي** صعوبة الإنقاذ في آخر لحظة، وسط الاشتباك، ضد قوات مجهولة، وامتياز التحذير على الأقل من الهجوم حتى لا تكون تحت رحمة العدو.

جدد في العاشرة و40 دقيقة اقتراحه بحرسٍ سلميٍ. "ألا تريدون أن نرسل فرقة عسكرية إلى القنصلية غداً صباحاً إن كان الجواب نعم اعرفوا إن قَبِل القايد." أعلم السيد **ميكري** الحاكم الذي استعجل تفادي العَرض، على الأقل لتأخير تنفيذه. ذلك هو الانطباع الذي تم استخلاصه من العبارات التالية التي نقلت في الحادية عشرة و20 دقيقة: "أكد لنا **مولاي لامين** والقايد شخصياً

أن القبائل ستأتي غداً صباحاً، وأنهما يأملان أن تُسوى الأمور سلمياً. كونوا على استعداد؛ لكن مهما حصل انتظروا إشارتنا."

على إثر هذه الجملة المطمئنة قليلاً، أصدر القائد أوامر بأن يستيقظ الرماة والمدفعيون في الرابعة والنصف من صباح اليوم الموالي. ظلت السفينة مرسية واحتفظت بقواربها فوق الماء على طول الشاطئ. طبقت توصية القنصل: "كونوا على استعداد" بالحرف. نمنا حائرين، نتطلع إلى نتائج ذلك اليوم حيث لم تتوقف الوعود بالتهدئة والأخبار المرعبة، لم تكف استعدادات سلمية وتهديدات ميالة للحرب عن التصادم.

# السبت 3 غشت 1907م

حُدّد الهجوم المتوقع في مناوشة صغيرة لفرسان **مولاي لامين** المكلفين بمنع القبائل من الدخول مرة ثانية [إلى المدينة].

على إثر حريق بعض الأكواخ بجانب باب المدينة، شنت الكتائب الشريفة هجمة. بدأ إطلاق النار **وسقط اثنان** من المتمردين. لم يلح رجال القبائل. تمت رؤيتهم يتراجعون لمسافة قصيرة، حيث أجروا الحملة وكانوا يطلقون، من وقت لآخر نحو الداخل، سعاة مكلّفين بنقل معلومات إلى ممثلي قبائل الشاوية المجتمعين ببرشيد للتشاور. تمر الساعات، في المغرب، بلا عد؛ وتُتخذ القرارات ببطء؛ شيء واحد يسير بسرعة، هو نقل الأخبار. على إثر المجزرة التي تعرّض لها الفرنسيون، انتشرت الحركة الكارهة للأجانب، مثل التموجات الناتجة عن سقوط حجرة في بركة، باتساع وارتعد السهل الشاسع الذي تشغل الدار البيضاء مركزه إلى غاية تخومها: الرباط في الشمال، ومازكان بالجنوب.

حاول **مولاي لامين** وحده تنقية المدينة من هذه العناصر المريبة التي ستعزز البدويين المتعصبين. تلقّى أهل المدينة أمراً بالبقاء داخل بيوتهم المغلقة. من خرجوا استعجلوا في الطرق مارين بالقرب من الجدران. ألقوا نظرات غضب تُجاه المارة الأوربيين، كما على

مرتكبي العقاب الذين يشعرون بأنهم قادمون، لأن الإشاعة انتشرت بوصول أسطول منتقم. لاذت بعض أسر الجاليات الأجنبية بالسفن الموجودة في المرفأ. واصل اليهود الهروب من الملاح بكثافة ووقعت مشاهد تراجيكوميدية بالميناء مع أصحاب القوارب وعمّال الميناء. تارة يترك هؤلاء الأخيرون الحقائب الثقيلة تسقط بالماء، شاكين في أنها تحتوي على أشياء ثمينة، ويطلبون أثمنة باهظة من أجل استعادتها؛ وتارة أخرى يحملها هؤلاء، واحداً واحداً، في القارب أفراد عائلة واحدة ويتركون واحداً على الشط الرملي. هكذا من أجل نقل الزوج، تترك الزوجة أو الابن للمساءلة واللذان يطلقان صرخات مفجعة، فيجبرون على الأداء مجدداً. تواصلت مساومات، ودموع وتأنيبات وجدالات ومشاهد إشفاق وتهديدات ساخرة بِحِيل مخادعة، ما دام لا يتم دفع الدوروات.

****

**في التاسعة والنصف** جاء السيد **ميكري** والسيد **نوفيل** إلى الشاطئ من أجل التفاوض مع القائد. فوفقا لهما، كان **مولاي لامين،** المقتنع بمسؤوليته، صادقا ويسعى لضمان النظام، لكنه لا يرد لا ممتلكات ولا حياة الأوربيين في حالة مهاجمة الدار البيضاء من قبَل ألفي فارس المعلن عنها في النواحي. لاحظ القائد أنه في لحظةَ اجتماع القبائل بجانب سور المدينة أو هجوم يخلع الباب، سيكون من المتأخر ضمان الحماية الفعالة للأوربيين اللائذين بالقنصليات. لا يمكن إخراجهم حينها إلا بالتعرض لخسائر كبيرة. ينبغي على الأقل توفر نواة من المدافعين بعين المكان من أجل تسهيل نزول الإغاثة. اعترف نائب القنصل

بصحة وجهة النظر هذه وعبر عن رغبته في أن تكون بالقنصلية بنادق وخراطيش. اقترح أيضاً إرسال ضابط وبعض البحارة بلباس مدني ينزلون في نفس لحظة نزوله. وافق القائد **أوليفيي**، عن طيب خاطر على الأسلحة والذخيرة، لكنه لاحظ أن ذريعة ارتداء ملابس مدنية لن تخدع أحداً لأنها، على افتراض أنها في مرحلة الهبوط، خدعت المغاربة، وبعد ساعة سيذهب البحارة إلى المدينة وسيقدمون رأيًا خاطئًا حول المشاعر التي تحفزنا، دون حساب الصعوبات التي تثيرها من وجهة نظر عسكرية. عاد السيد **ميكري** إلى الصواب. سينزل الرجال بلباسهم العسكري، مخفين المسدسات تحت ملابسهم. من المتفق عليه أن الملازم الثاني الرامي، السيد **كوسم**، سيبقى بالقنصلية حتى يدافع عنها ويحرسها بمعية 12 بحاراً سيذهبون جماعات مثنى أو ثلاث، على عدة دفوعات. عند العودة إلى البر، حمل القنصل، رُفقة بحارين، حقيبتين كبيرتين، تحويان 15 بندقية و1000 خرطوش.

أبقينا السيد **دارمي** (Darmet)، لتناول الغذاء بالمطعم، وهو رجل مراقبة بالقرض المغربي، نصّبه السيد **بيرتي** موخرا. السيد **دارمي** متزوج ورب أسرة. وكان ينظر إليه بشكل سيئ في الاضطرابات الحالية، بفعل وظيفته واستقامته، كان عليه أن يلجأ رفقة أقاربه إلى الباخرة الإنجليزية **دومتيان** من كارديف، حيث عسكر فوق جسر السفينة في فقر مدقع تماماً رفقة حوالي 140 شخص أغلبهم فرنسيين أو محميين فرنسيين هم في نفس الضيق. بعد مجزرة 30 يوليوز، ضربت الأسر الفرنسية موعداً بالقنصلية من أجل قضاء الليلة هناك ولتدافع عن نفسها في حالة هجوم ما. كان السير في الطرق جد خطر بحيث لم تكن تجرؤ الأسر على العودة إلى

بيوتها في اليوم الموالي. توجهت تحت الحراسة، نحو السفن الراسية بالمرفأ، تم إركابها دون طعام ودون فراش ودون مطبخ أو نظافة. ومنذ ذلك الحين ظلت فوق الجسر متكدسة محافظة على حياتها، لكن بلا وسيلة للإعالة: بلا أغطية أو شراشف أو صحون ومقلاة أو مواد تنظيف. أظهر القبطان الإنجليزي **وليام جون** (William Jones)، وطاقمه تعاطفاً وتفانياً مؤثرين. عملوا على فتح قُمراتهم وأماكن عملهم للنساء والأطفال. قاموا بِعدة أعمال لخدمة الجميع. لكن كيف تستطيع مساعدة 12 رجلاً الاعتناء بـ 140 بئيس من كل الأعمار؟

كان من المفهوم أن **كاليلي** منحتهم أيضاً أواني المائدة والمواعين والمواد الغذائية ذات الأهمية الأولى حتى لا يُتركوا تحت رحمة قوارب مغربية لا تحمل لهم الخبز إلا بثمن المجاعة. أكدت لنا هذه التفاصيل من قبل السيدين **بيانيمي** (Bienaimé) **وشارباونتيي** (Charpentier)، كان أحدهما مديراً والآخر مساعد مدير بوكالة الشركة الجزائرية بالدار البيضاء، كانا هما أيضاً لاجئين بالميناء منذ عدة أيام.. جاءا يطلبان من القائد **أوليفيي** أن يحظيا بالاستقبال على متن **كاليلي**. بناء على رغبة القائد، تمّ استقبال هذين الشابين بالمطعم. حظينا بعد ذلك بزيارة السيد **فيليب** القوي والبشوش ممثل شركة **باكي**. لم يغادر المدينة، لا يخشى الظهور والتحرك أينما تطلبته أعماله. لم يكن ما نقله لنا من أخبار مطمئناً: أفرغت الدار البيضاء في رمشة عين، وصارت الطرق مقفرة، وتوقفت التجارة، وأصبح الأمن معتمدا على القبائل. في الساعة الثانية ذهب معه رفيقنا **كوسم** (Cosme) إلى القنصلية، مصحوبين ببحارَين. وكانت أمتعتهما تحوي ذخيرة جديدة. وصلت هذه

الدفعة الأولى إلى دار فرنسا بأمان. غادرت مجموعة ثانية مكونة من السيد **لوري** وأربعة بحارة من **كاليلي** في الثالثة والنصف. ذهب جندي واحد تابع للقايد لانتظارهم وقيادتهم.

حين عاد السيد **لوري** حوالي الرابعة والنصف، كان له نفس انطباع السيد **فيليب**. كانت الحوانيت مقفلة؛ كان عدد قليلٍ من المارة في الطرق، والأهالي يسرعون الخطى، لا يتوقفون أبداً للحديث فيما بينهم. كان بعض الأوربيين يتجولون، متبوعين بعسكري مسلح. تم نشر إشاعة خبر هجوم القبائل والجميع يعلم أنه أعزل. إن وضع النهابون البدو المدينة في جيبهم لن يحترموا لا المسلمين ولا النصارى. توالى القلق من اليوم الموالي والإحباط الصامت في مظاهرات ضد الأوربيين. فضلاً عن ذلك، ضاعفت الأخبار القادمة من الخارج الهواجس. من برشيد مازال الهجوم على الدار البيضاء واحتلالها في اليوم الموالي معلنا. بمازكان يُسمع بالنهب. في الرباط، الاضطراب مهدد لحياة الأوربيين. في الثامنة والنصف، أبلغت القنصلية **كاليلي**: "رسالة نائب قنصل فرنسا بالرباط: على إثر أحداث الدار البيضاء، بدأ هيجان قوي بالرباط. الأوربيون في خطر. إن كانت توجد، كما قيل، بالدار البيضاء سفينتان. أرسلوا واحدة بشكل مستعجل."

أجاب القائد على الفور: "أيَعتقد السيد القنصل أن **كاليلي** يمكن أن تنطلق؟" عارض السيد **ميَكري**، لكنه فكر حينها في استعمالِ السفينة التجارية الفرنسية **واد سبو** التي كان انطلاقها مؤجلاً. ساعتان بعد ذلك في اللحظة التي كانت سفينة **واد سبو** تستعد من أجل نجدة مواطنينا بالرباط، أبحرت سفينة **ماروكو**

(Maroco) من أجل خدمة اللاجئين، أيضاً، بمازكان حيث كانت المخاوف أيضاً قوية.

يا لها من وضعية **لكاليلي!** كيف ستحل المشكلة المقلقة المطروحة في ثلاثة أماكن في وقت واحد؟

حافظ القائد **أوليفيي** على برودة دمه. بعد أن علّق في وقت متأخر من الليل على الأخبار المتفائلة للساحل: "ينبغي مع ذلك الذهاب للنوم– قال لي– والسعي للنوم: أتتوفّر بالمطعم على العدد الأخير من جريدتك التولونية. ليس من أجل الأخبار؛ بل من أجل المسلسل."

# الأحد 4 غشت 1907م

وصلت السفن إلى المرفأ حاملة تعليمات واضحة حول السفن الحربية وعن الكتائب التي أرسلتها الحكومة الفرنسية إلى الدار البيضاء لتأديب المجرمين. لم يكن يعرف بالضبط أسماء السفن، لكن القوة البحرية القادمة كانت مهمة. كان كل الناس ينتظرونها بالدار البيضاء. كانت فركاطات تصل دائماً بعد أعمال القتل لتنخرط في المظاهرات؛ طالبت هذه المرة الأمم المصابة بالعقاب. سُئل وجهاء المدينة و**مولاي لامين**، الواعين بمسؤوليتهم كيف بمستطاعهم التخفيف من الاستياء الفرنسي. تبعاً لعادته في لحظات الأزمة، طلب المخزن مبتغياته من موارد مختلفة. حين تزعجه إكراهات ديبلوماسي أو قنصل، يستشير سرياً دولة أخرى، وأحياناً عدة دول، و، تبعاً للأجوبة، يقرر.

كان واحد من الوكلاء القنصليين الأكثر اطلاعا (حكى لي في عبور على متن **كاليلي** فيما بعد) قد استُشعر في مناسبتين في يوم 4 غشت: لم يتردّد في شرح هذا الجدل،– مفيد للغاية بالنسبة لكل المعنيين كيفما كانوا، – إن أحسن طريقة لنزع سلاح القوات المنتظرة كان هو الترخيص لحرس من البحارة بالدخول بشكل سلمي إلى القنصلية في أقرب وقت ممكن؛ ستكون لهذه الوضعية، التي لا تُسبب أي إزعاج، أحسن النتائج، بشرط أن تضمن السلطات المغربية نزولا سلمياً، بالعمل أولاً على إثارة

صدق نوايا **مولاي لامين** وإخراجه من القضية، في التحقيق عن المسؤوليات ستحدث في رحلة ما: حين تأتي السفن، وتجد القنصلية محتلة والمدينة هادئة، أي حركة تستطيع الانخراط فيها؟ ستتبدّد كل ذريعة للتدخل العسكري: "ماذا تطلبون أيضاً؟ من الممكن أن يقول أحدهم؛ اعتذارات، تعويضات، ضمانات بخصوص المستقبل، معاقبة الجناة؟ سيكون لكم ذلك، لكن لم يعد أي لمبرر لإقامتكم في البر وجود." يمكن للمرء أن يخشى من هجوم القبائل غير الراضية على دخول البحارة الفرنسيين إلى القنصلية. تحت ضغط كتائب أوربية وحماية مدافع السفن سيتم تجنّب النّهب وبالتأكيد الحد من الضرر.

كان أفضل شيء، إذن، هو السماح للاجئين الفرنسيين بالمرفأ بالعودة إلى المدينة، ولبحارة **كاليلي** بالذهاب إلى القنصلية. وترك بعض العشرات من البحارة سيعززون من كانوا بها حينها، ومعارضة انقلاب للقبائل، بتجنّب نزول آلاف الجنود التي تنقلهم الفركاطات، لكن ينبغي التقدم إلى الأمام، بإزالة دواعي التدخّل، بقبول حرس مرخّص له. كان التفكير متوافقاً مع المصلحة المغربية وكان أيضاً موافقاً لمصلحة الجاليات الأجنبية: بتقليص حظوظ اللانظام، وأن لا تتم الإساءة إلى المشاريع، بترك الكلام للديبلوماسية، وحصلت فرنسا على الحد الأدنى من الرضا الذي لا غنى عنه لتقديرها لذاتها. أكيد أنه كان هناك ضغط على **مولاي لامين**. لكن، من خلال عدم معرفة كيفية اتخاذ القرار بسرعة، جرياً على عادة سياسة المخزن، فقد وازن ما بين الإيجابيات والسلبيات أو حتى قد قدم بشكل سري للآخرين النصيحة التي بدت مؤلمة لكرامته الوطنية وسيكون عرضة للانتقاد فيما بعد بفاس، إذا تم تسوية كل شيء في آخر لحظة.

****

**في العاشرة** زار القائد **أوليفيي** إقامة رجاله بالقنصلية. اصطحب معه بحارَين، فوصل العدد الذي نزل من **كاليلي** إلى البر إلى عشرة، دون حساب الملازم الثاني **كوسم**. كان بعض الفرنسيين الذين بقوا أو جاؤوا إلى الدار البيضاء متموقعين كجنود متطوعين تحت أوامر السيد **كوسم**، الذي خصص لهم مخفراً وحدّد لهم ساعات الحراسة والتداريب. تلقى كل واحد من السادة **هويل** (Houel)، **وبايترال** (Peytral) و**شاربونتيي** و**ميرسيي** بندقية؛ واستلم كل من السادة **فورنيي** و**داريك** و**ليفي** (Lévy) و**سوفرون** (Souffron) **وتيبول** (Théboul) و**ميرلان** و**كينار**، مسدساً. كانت المنافذ موصدة أو مسدودة؛ كان سد من أسلاك حديدية قد أغلق المدخل الرئيسي بالحديقة. في حالة الطوارئ؛ كان لكل واحد موقعه ودوره المحددين في نظام معلق بالبهو:

بمجرد ما تم الإعلان عن الطارئ عبر بوق صغير، تسلّح المتطوعون والبحارة واتخذوا المواقع التالية:

| الأسماء | المواقع | السلاح |
|---|---|---|
| السيد **طارديفال** | الإشارات | مسدس |
| السيد **هويل** | القماش من أجل الإشارات | بندقية |
| السيد **تيبول** | الموقع رقم 4 | مسدس |
| السيد **ميرلان** | الموقع رقم 3 | مسدس |
| السيد **كينار** | الموقع رقم 2 | مسدس |
| السيد **سوفران** | السلّم | مسدس |

اجتمع المتطوعون غير المشار إليهم فيما سبق على السطيح الكبير تحت إمرة السيد **فيليب**. واصطف البحارة المسلحون بالبنادق تحت إمرة المدفعي **ألكيي** (Alquier) أمام باب القنصلية إلى اللحظة حيث جاء العسكري من الدرجة الثالثة المسلح الذي بقي في البداية في غرفة السلاح من أجل توزيع الأسلحة والخرطوش، ليتولى قيادة البحارين مكان **ألكيي**. لم يغادروا ذلك الموضع و لم يقوموا بأي حركة، و لم يطلقوا أي خرطوش دون أمر شكلي من الضابط قائد الدفاع. كان ينبغي على كل شخص أن يتوفر، كذخيرة، على مسدس وست رزم وبندقية وست آليات شحن. وعمل نوتي الإشارة **فيرهوفن** (Verhoeven) رسولا.

بالإضافة إلى دورها الدفاعي، كانت الفرقة العسكرية مكلّفة بتسهيل الدخول إلى القنصلية في حالة إنزال قوة كبيرة ستجري عبر شاطئ **سيدي بليوط** ومجموعة المنازل المجاورة لقنصليتي فرنسا والبرتغال.

عاد القائد **أوليفيي** إلى الشاطئ من أجل الغذاء، كان راض جدا عما قدّمه له **كوسم** من استعدادات وتعليمات. وفي الخارج، واصلت العصابات التي كلفتها القبائل بمراقبة المدينة استعراضاتها الهجومية. بسبب خشيتها تبادل طلقات بنادق بالقرب جدا من الأبواب حيث يأوي جنود **مولاي لامين** بواسطة السور، حيث كان لهم الامتياز، حاولت جرهم إلى البلد المفتوح، عبر الاستحواذ على ضيعة **سودان** (Soudan) الواقعة على بُعد حوالي ثلاثة كيلومترات من السور.

**في الحادية عشرة و50 دقيقة**، وصلنا من القنصلية البلاغ التالي: "نُهب للتو بيت غير مأهول للسّيد **سودان**، يوجد حالياً تحت مسؤولية السيد **فورنيي**، وقُوّض تماماً."

لم يكن حذراً من جانب الحاكم أن يتعارض مع رجال شرطته، لأنه لا شيء يثني هؤلاء الرجال عن أي فرصة للسلب والنهب. كان خطر قضية **سودان** أقل على مستوى ما تسبب فيه من ضرر، من المحاولات غير المقموعة والطمع المشتعل. عند الغذاء، لم نستطع منْع أنفسنا من التفكير في محنة مواطنينا اللاجئين ب **دومتيان**، التي نبّهنا لها يوم أمس السيد **دارمي**؛ قرر القائد والسيد **لوري** والدكتور **بروني** الذهاب لزيارتهم في بداية ما بعد الزوال.

وجدوا جسر السفينة فوق خزان الحبوب ممددة عليه بأكمله الحصر وبقايا الأثواب، التي ازدحمت عليها أو قرفصت عليها مجموعة من الناس في ضيق، إذ بالكاد ما يتم المرور بين الجماعات. يعيش 140 شخص، دون عد الأطفال، متكدسين منذ عدة أيام، دون أن يستطيعوا الاغتسال وتغيير ملابسهم والتحرك أو إعداد طعامهم. ظل كل واحد جالساً على كعبيه أو مضطجعاً من أجل الحفاظ على مكانه. تراقب المجموعات بعضها البعض لمنع تعديات السيقان أو الأجسام على موقعها الصغير. هربت النساء كما حدث يوم 30 يوليوز، ولمدة خمسة أيام، كان عليهن البقاء كما كُنّ، ليس لهن ثوب يحميهن من ندى الليل. كان عدد كبير من الأطفال المحرومين من الحليب أو الطعام المناسب، مصابين بالإسهال الأخضر وكانوا يُعْدون بعضهم البعض. كان شيوخ يخفون، من أجل مصلحتهم، عاهاتهم المنتشرة بين الناس

ويستسمحون من يزدحمون معهم عن قرب. تفاقم فقر الدم والحمى والاضطرابات المعوية لدى من كانوا يعانون حينها من حرارة الصيف الشديدة. كانت الوجوه الشاحبة والأعين المتعبة والطابع الفاتر للمجموعات يكشف عن الآثار الخطيرة لتجمّع كذاك ولرائحته المقرفة. على الرغم من أن وجهه مشوه بتورّم، فإن القبطان **وليام جيمس** قد أعطى قمرته وأعار كل أشيائه الشخصية، بما في ذلك ثيابه المغسولة، لمن كان في حاجة ماسة إليها. تمت إراحة هؤلاء المساكين، ووزّع عليهم خمر كينكينيا، وتم الاتفاق على أن تجلب لهم، في زيارة ثانية، الأدوية والأشياء الأكثر استعجالا.

عند العودة إلى متن السفينة، وجد القائدُ السيدَ **ميكري** على علْم بوضعية هاته الأسر الفرنسية، فقرّر على الفور الذهاب إلى **دومتيان** رفقة الدكتور **بروني** الذي عاد من هناك محمّلاً بالأدوية والضمادات. ليس من الصعب إقناع نفسه، مثل الطبيب، بأن الإخلاء كان ضروريا في أقرب وقت ممكن، ويفضل أن يكون ذلك في نفس المساء.

سهّل **مولاي لامين**، الحذر، إرسال المنقالات إلى **دومتيان**، لأن عودة الفرنسيين إلى المدينةَ ناسبت تماماً الجزء الأول من النصائح التي كان من مصلحته اتباعها. **في السادسة والنصف** أرسلت القنصلية البلاغ التالي: "لقد تم ترتيب كلٍ شيء، سيأخذ منقال الفرنسيين الذين يريدون النزول." تقريباً مباشرة بعد ذلك، **في السادسة و50 دقيقة**، أضافت: "إذا حدث النزول، فإن **مولاي لامين** مصمم على تسليم مفاتيح المدينة."

ماذا حدث؟ كان **مولاي لامين** قد إلتمس، مرة أخرى، بشكل سري نصيحة من الوكيل القنصلي المطّلع على الأمر بشكل جيد، والذي كرّر له حجّة الصباح فلم يكن يستطيع سوى الالتزام بها وأن يستجيب في أقرب وقت ممكن. جرت الإشاعة منذ بداية بعد الزوال بالدار البيضاء بأن **كاليلي** علمت بواسطة تلغرافها اللاسلكي باقتراب البارجة الحربية **دو شايلا** وأن سفينة حربية إسبانية، قادمة من الكناري، ستصل في أي لحظة. بصرف النظر عن الأخبار المنتشرة في البر كان الملازم الثاني للباخرة **ليج** قد طمأن الفرقة العسكرية الصغيرة للقنصلية بأننا لن نتأخر في ربط الاتصال بـ **دو شايلا** (Du Chayla). توسّل إليه **كوسم** بأن يحمل إليه بوقاً صغيراً من أجل المناداة على عمّال الدفاع في حالة وقوع هجوم، كان قد وصل في الساعة الثالثة إلى القنصلية، وتحدّث مع البحّارة والمتطوعين الفرنسيين، الطامعين في الحصول على المعلومات، إذ أنّه قبْل عودته إلى الشاطئ في الخامسة، كانت كلماته قد انتشرت في المدينة.

****

**في السادسة بالضبط** استطاعت **كاليلي** أن تقرأ الإشارة الأولى لـ **دو شايلا**: "أين أنتم؟"

كان الوصول المنتظر، بشكل كبير، لسفن جديدة قد أعلن عنه العرب فوراً بمظاهر الفرح، كبداية للانتقام. كان **مولاي لامين** قد تشاور مجدداً. كانت عودة فرنسيي الدار البيضاء إلى بيوتهم والترخيص بإنزال حرس بالقنصلية، هي الوسيلة الوحيدة للمحافظة على مسؤوليته تجاه الأوربي المنتصر، وللتحذير من

استعمال الكتائب في معاقبة القبائل والتقليص من الاختلاطات معها وضمان قليل من الحماية ضدها. لكن عمّ السلطان لم يكن في مستطاعه تسليم الدار البيضاء لقنصل فرنسا، وألمح بأدب إلى أنه لن يعارض نزول بعض البحارة من **كاليلي** من أجل حراسة قنصليتهم.

****

**في الثامنة و10 دقائق** أشارت القنصلية: "بلغتنا أخبار سيئة من الرباط. يوجد أوربيون في خطر. يطلب نائب القنصل سفينة حربية." هكذا كان يتم الإعداد لثورة عامة مهددة بمازكان والدار البيضاء والرباط ولمجزرة ونهب. بعيداً عن التهدئة، امتدّت حركة القبائل وتقوت: كان نهب ضيعة **سودان**، وتدنيس المقبرة ونهب جزء من الملاح قد أثبت ما كان هؤلاء القوم الرّحل الهائجون قادرين عليه إن تمّ تركهم يواصلون. فمن يستطيع إيقافهم؟ لا **مولاي لامين** ولا القايد يمتلكان السلطة والقوى الكافية. كيف يمنع جنوداً لا يتقاضون أجوراً، منذ مدة طويلة، من التضامن مع القبائل من أجل السيطرة على المدينة؟ كان اعترافا بالعجز لقبول الذهاب لحراسة القنصلية؛ لكن ألم تكن الطريقة الوحيدة لصد القبائل هي اتخاذ الاحتياطات ضدها؟ إن وقع هجوم سكان الشاوية، كما تم الإعلان عنه، كيف ستُحمى قنصلية فرنسا في خضم فتنة تامة، والدخول بقوة إلى المدينة المسوّرة بعدد قليل من الرجال؟ لنفترض أننا لن نتكبد الهزيمة، فإننا سنرسل الطاقم إلى المجزرة. على العكس، إن حدثت فجأة فترة هدوء. نستغلّها من أجل ضمان عودة اللاجئين بما أنهم لا يستطيعون البقاء لمدة أطول على متن **دومتيان** دون التعرض لخطر العدوى.

بتقليب السّؤال من كل وجوهه، لم نتمكن من إيجاد أحسن حلّ، إزالة المزيد من الأخطار، وتسهل بشكل أفضل الحماية لبعثننا الحالية، وكذلك الخطط اللاحقة للقوة البحرية المنتظرة، وهذا دون إراقة الدماء. ماهي الاعتراضات التي يمكن تقديمها على عملية النزول المرخص لها من قبَل **مولاي لامين**، والمقصود بها الحفاظ على مظهر التدبير الوقائيَ وغير المؤذي؟ لم يعترض القناصل الأجانب المخبَرين منذ فاتح غشت بإمكانية نزول إلى البرّ. أزال التفاهم مع **مولاي لامين** كل طابع عدواني أو استفزازي للفرقة العسكرية النازلة بالبر، وفي الواقع، على العكس من ذلك حليف عابر للمخزن من أجل الحفاظ على النظام ضد القبائل المتمرّدة.

بعد أن فكّر القائد **أوليفيي** ملياً في هذا المجموع من الأدلة، قرّر قبُول النّزول المقترح من قبَل **مولاي لامين**، لكن عبر الإحاطة بالاحتياطات ضد تغيّر في المواقع أو أي عمل مُخادع. كان التلغراف اللاسلكي للسفينة قد دخل، منذ السادسة مساء، في تواصل مع **دو شايلا**، السفينة الكشافة لأسطول الأميرال **فيليبير** (Philibert). أمكننا توقع المساندة القادمة لهذه القوة البحرية. أعلن القائد للقنصلية في التاسعة و45 دقيقة: "نحن في تواصل مع **دو شايلا** التي أشّرت إليها بالذهاب إلى الرباط. أخبروا **مولاي لامين** في اللحظة التي ترونَها مناسبة، أنّنا سننزل في الخامسة صباحاً، وأن باب الميناء ينبغي أن يظل مفتوحاً وسيصل الأسطول بقوى كبيرة، وإن كان الباب غير مفتوح، في الساعة المشار إليها وإن أطلقت تسديدة بندقية على رجالي سأفجّر المدينة العربية. بالطبع سنُحافظ على **مولاي لامين** كسلطة أهلية."

أُعْطيت التعليمات فوراً من أجل اليوم الموالي، **تم** الاتفاق على كلَ التفاصيل بين القائد والضابط المُساعد السيد **شاسبول** (Chaspoul) ورؤساء المصالح. وسيشرف الملازم الثاني لباخرة **دو سيزيو** (De Saizieu) على الإركاب؛ سيساعد الطبيب من الدرجة الأولى السيد **بروني** الفرقة العسكرية بالَعلاجات المُستعجلة: سيدعّم السيد **لوري** بسُلطته وتجربته الخطوَات أو العلاقات مع السلطات المحلية؛ وأخيراً سيقدّم السيد **بيرتي** يد العون من خلال معرفته باللغة العربية.

****

**في منتصف الليل،** تمّت تسوية كل شيء بشكل نهائي، و **لم** يتبقّ **لكاليلي** سوى أن تقضي الليل في هدوء. لُكن **لم** يكن الأمر نفسَه بالقُنصلية حيث استشَف من الإشارات المُرسلة أنّه يخيّم قليل من اللايقين؛ في الواحدة والنصف، تساءل السيد **ميكري:** "ما هي القوى القادمة؟" ردت **كاليلي** على الفور: "اتصالات واضحة شيئاً ما مع **دو شايلا،** ستكون غداً، **يمكنكم** أن تؤكدوا ذلك **لمولاي لامين.**"

كانت **دو شايلا** قد سألت في السادسة من **كاليلي:** "أين أنتم؟" بعد تحديد الموقع، أشارت **كاليلي** في السادسة والنصف: "مُرّوا إلى الرباط وإن كان الوضع هادئاً واصلوا السير في اتجاه الدار البيضاء." لكن بعد ذلك بقليل كانت **دو شايلا** قد نادت بواسطة عمود الإشارة لكاب سبارتيل بناء على طلب البعثة الفرنسية بطنجة، بحيث إن الاتصالات، المشوشة بالإضافة إلى وجود مناخ عاصف، توقّفت عن أن تكون واضحة خلال جزء من

الليل. ولم تتم بيسر سوى في الخامسة صباحاً. وبالتالي، أيقنّا أن **دو شايلا** كانت تسبق الأسطول؛ وعرفنا أيضاً أسماء العديد من سفن ذلك الأسطول، لكن كان من المستحيل تحديد وقت وصولها بشكل مضبوط. لم تستطع **كاليلي** بصدق، الملزمة بالبقاء في عدم الوضوح، لا تجاهل ما تعرف ولا قول أكثر، على الرغم من أنها تحسّ بكم ترغب بأن تكون مثبتة في البر من أجل الإجابة عن تساؤلات القناصل الأجانب، حين أنذرهم السيد **ميكري** خلال الليل، بالنزول.

# الاثنين 5 غشت 1907م

ابتداء من **الساعة الرابعة صباحاً**، تجهّز الرماة على جسر **كاليلي**؛ تأكد الرؤساء من أن لا شيء ينقص؛ راجع القيّمون على الأسلحة علب الخرطوش، سلّح العمال القوارب وزودوا قارب الخدمة بقطعة مدفع 37 ملم، قدّم ذوو الرتب توصياتهم، وزّعوا الذخيرة وتبادل الرجال المجاملات. كانت تنعشهم حيوية مفرحة. ساعدوا بعضهم البعض بشكل ودي؛ كانوا مستعجلين في النزول إلى البر. كانوا يعلمون أن الأمر يتعلق بالذهاب سلمياً لحراسة القنصلية، لكن ظنوا ربما سنذهب إلى أبواب المدينة، إن هاجمتها القبائل أو إذا تم تكليفهم بإخلاء الشاطئ حين يصل الأسطول؛ حتى دون هذا ستكون هناك مغامرات، ثم إنه لمن دواعي السرور أن يتم أخيراً التجول في هذه الدار البيضاء التي يتم الحديث عنها منذ أيام.

****

**قبل الخامسة**، كان باب الميناء مفتوحاً على مصراعيه. لم تكن هناك اتصالات جديدة من القنصلية، لم تظهر، إذن، أي صعوبات خلال الليل. ومع ذلك، على سبيل الاحتياط، عمل القائد **أوليفيي**، قبل الانطلاق، على التأكيد أنّ استعدادات **مولاي لامين** لم تتغير وأعلن في **الخامسة و20 دقيقة**: "أجيبوا **مولاي لامين**."

أجاب القنصل في الخامسة و25 **دقيقة**: "أرسل **مولاي لامين** للتو مبعوثاً يخبر القايد باتخاذ إجراءات تتمثل في أن يكون الباب مفتوحاً وأن لا تطلق أي طلقة بندقية. وطلب أن لا تفجّر المدينة إن أطلق بعض البلطجية النار ضد الكتائب. قبل الردّ السلبي."
من جهة أخرى، كنّا متأكدين من الحضور القريب للبارجة الحربية **دو شايلا**. في الخامسة أشار تلغرافها اللاسلكي إلى **كاليلي**: "نحن في طريقنا إلى الدار البيضاء." في **الخامسة والربع** سألتها **كاليلي**: "أينِ أنتم؟" **وفي الخامسة و20 دقيقة** أجابت: "نحن على بُعد 85 ميلاً شمال شرق الدار البيضاء."

شرع الرجال في النزول إلى القوارب، لكن تقليص عددٍ العاملين أبطأ الأشغال وكان الأمر يتعلق الأمر بإسكان 66 رجلاً مُربكين بحقائبهم وبنادقهم وأطعمتهم. انتهز القائد الفرصة لتجديد تعليماته. قال للدكتور **بروني** من المفهوم بالطبع أن يُرافق الفرقة العسكريَة من أجْل السّهر على التجهيز الصحي بالقُنصلية، بعد أن تمّ اتخاذ التدابير اللازمة للمباني من ماءٍ ووسطٍ إلخ.. طلب على الفور، بواسطة إشارة بالذراع، قارباً صغيراً بالميناء بُغية العودة إلى متن السفينة رُفقة السيد **لوري** والسيد **بيرتي** اللذين كانا في حاجة إلى رُؤية القُنصل والقايد بخصوص الجمارك. عوّل عليهم قبْل الغذاء من أجل الحصول على معلومات. بالنّسبة للملازم الثاني **بلاند** (Ballande) فقد أوصى من جهته بأن يكون رهن إشارة القنصل ويبحث معه إلى أي مدى سيكون قادرا على مواصلة حماية المناطق المجاورة للقنصلية وضمان الاتصالات مع البحر. كان هذا المشكل الأخير ذا أهمية كبيرة. يمكن أن يُحل باحتلال مجموعة منازل واقعة خلف ويسار قنصلية فرنسا،

بين ساحتها وحائط السور المؤدي إلى شاطئ **سيدي بليوط**. لا يفصل هذا المجمّع من المباني الذي تشغله قنصلية النمسا وقنصلية البرتغال والسيد **ميكري** والدكتور **ميرل**، عن الشاطئ سوى حائط قليل الارتفاع؛ أيضاً كانت كل نوافذ الواجهة على نطاق واسع مشبكة؛ لكن هذا العائق الوحيد اجتيز، تمّ الدخول عبر الطريق المؤدية مباشرة إلى قنصلية فرنسا. فبهذه الطريقة فقط عند وصول **كاليلي**، تم التفكير في الدخول إلى المدينة في حالة تدخل عنيف لأن باب الميناء، البعيد جداً، والمحمي ببريجات بارزة والمحاط بأسوار عالية، كان يُنظر إليه على أنّه لا يُمكن الهجوم عليه. رخّص القائد لـ **بلاند**، باتّفاق مع الحاكم، بزيارة أسوار وأبواب الدار البيضاء من أجْل تقوية الدفاع ضد القبائل، هكذا تم إرسال فرقتين لحراسة قنصلتي إنجلترا وإسبانيا، في حالة وجود مضاعفات أو بطلب من القناصل. على الرغم من كل صعوبة تبدو بعيدة الاحتمال، أوصى بالاحتراس من أي موقف يمكن أن يسيء إلى العرب وتجنّب أي مظهر للاحتلال.

نقل **بلاند** من أعلى فُتحة السّفينة أوامر القائد: "تذكروا أنّنا ندخل بشكل سلمي إلى الدار البيضاء، وسيتم تزويد الأسلحة لا تحميلها. لن نملأها إلا بإذن قائدنا. كيفما كانت مشاعرنا تجاه الساكنة بعد جرائم القتل المقترفة مُنذ ثمانية أيام، لم نأت من أجل معاقبتهم. يجب أن نترك التكفّل بهذا الأمر للقوات التي وصلت وكلفتها الحكومة بمهمة. بالنسبة لكم، سيشاهد عرب وأجانب عبوركم في الشوارع، أظهروا لكل منهم لباسكم ومظهركم، إن كنتم فخورين بأنكم فرنسيين، لستم متغطرسين. لا تردّوا على الاستفزازات، لا تبدوا ردود أفعال أو مظاهرات في حالة

رؤية حركات وتهديدات أو كلمات مهينة من قبَل الأهالي."
كان لهذه الخطبة القصيرة مفعول ممتاز. من الأسفل، كانت آذان البحارة مصغية وأعناقهم مشرئبة تجاه **بلاند** حتى لا تفوت كلمة واحدة من كلماته.

حين شرع القارب الذي جرّنا في الابتعاد، أشار حرس السفينة إلى الخامسة والنصف. لا وجود لتموّج على الماء، بالكاد ما كانت توجد تموجات عريضة. من جهة الدار البيضاء، لا وجود لضجة، ولا حركة. بدا البر والبحر خدرين وسط ضباب الصباح، ملونين برمادي فاتح، كانت السماء مغطاة بالغيوم. كانت عروة مقبض الميناء مع صخوره التي تنكسر عليها الأمواج، أساسه الخشبي وتميز شاطئه الحجري بسرعة، لأن **كاليلي** لم تكن تبعد عن الشاطئ سوى ب 1400 متر. لم يكن هناك حشد أمام مبنى الجمارك، على عكس توقعاتنا. بالكاد ما رآنا عشرون مغربياً في صمت. توقّف القارب على مسافة من الشاطئ الرملي، لأنّ المد كان منخفضاً. واصلت القوارب إلى غاية أقصى الميناء حيث تم إيقافها من أجل النزول. قفز البحارة فوق الأحجار فتلطخوا. حمل بعض العرب من تلقاء أنفسهم ألواحاً خشبية وضعوها على شكل مائل نحو البر. تموقعوا من كل الجهات، مدوا أيديهم من أجل إسناد من عبروا لأن الألواح الخشبية كانت تتذبذب تحت أوزان رجال مسلحين.

بعد بضع خطوات، كان السور العالي جداً متوجاً بمدافع. كان من المتوقع رؤية القايد أو ممثل للسلطة المغربية يأتي لمقابلتنا كما في الأيام الأخرى، لكن حضر **الزاكوري** ترجمان القنصلية وحده من أجل تحديد الطريق. عند مغادرة الشط الرملي، كان

ينبغي أن نتجه إلى اليسار، وأن نصعد منحدراً يحاذي حائط المبنى، واتجهنا إلى اليمين من أجل اجتياز باب الميناء، وتسلقنا منحدراً جديداً أمام بنايات الجمارك واتجهنا يساراً في ممر ضيق بين الأسوار والمنازل العالية. من هناك إلى القنصلية، كانت ما تزال تفصلنا مسافة 250 متر تقريبا وأربع منعطفات ذات زوايا قائمة تؤدي اثنين منها إلى ساحات صغيرة.

كان **بلاند** قد قضى، خلال السنة الماضية، بضعة أيام في الدار البيضاء وكان قد درس تصميمها: لم يكن عليه سوى المناداة على **الزاكوري** لحظة الوصول. لم يستعجل الرجال في النزول. استخرجوا من القوارب، تدريجيا، الأطعمة والأدوات التي يحتاجون إلى أخذها معهم إضافة إلى ذلك. تحدّث السيد **بلاند** و**لوري** و**بيرتي** والدكتور مع السيد **الزاكوري** وسألوه إن كان هناك جديد. لم يخبرهم بما يقلق وأفضل دليل على ذلك هو أنه كان وحده هناك بلا سلاح لكي يرافقنا.

ومع ذلك خلال زيارته **لسي بوبكر** لكي يحذّره من نزولنا إلى البر، فوجئ بإيجاد تجمع للشباب في فناء منزله في وقت غير معتاد. بالقرب من السيد **الزاكوري**، كان يوجد واحد من جنود القايد قال لواحد من الزملاء: "هل سنتركهم يقيمون دون أن نكلّم البارود؟" وابتعد المتواطئون على عجل. لكن الآن لم يعلق أحد على ذلك أي أهمية تُذكر وأنه من الأكيد أن ممثلاً للسلطة المغربية، رخّص بنزول البحارة، كان هناك، لم تكن هناك أي ذريعة للتفكير في أي عربي.

ما أن ابتعدت القوارب، حتى وضع البحارة حربة في المدفع واصطفوا في صفين، مقابل الأسوار. أمرهم **بلاند**: "إلى أرقامكم." ثم "إلى اليسار أربعة أربعة"، ثم هزت القوات السلاح بالأذرع أمام ثلاثين من المساعدين الصامتين الذين تراجعوا وتفرّقوا باندفاع من أجل إفراغ الممر.

كان **بلاند** يتقدّم، وكان على يساره المشرف على البوق **أودران** (Audran)، ووراءه السيدان **بيرتي والزاكوري**. ثم يتلوه العريف البحري للفروسية **لاباست** (Labaste)، قائد القسم الأول. بعد الخط الأخير، كان يسير السيد **لوري** الذي لم يكن يحمل حربة والدكتور **بروني** والممرض **روزيك** (Rozec)، مزوّدين بمسدسات لأنه الزي النظامي للخدمة، لكنها مسدسات فارغة من الرصاص. ما الفائدة من نزهة سلمية!

تسلقنا المنحدر الصغير المؤدي إلى متوسط الميناء، الذي فتح على زاويته اليمنى باب مشبك على نصف علوه، حتى نتمكن من رؤية ما يجري وراءه. سار الرجال بمحاذاة الأسوار العالية؛ نظروا عالياً إلى الطريق ذات الدائرة المسننة حيث تتجاوز بعض أفواه المدفع. في الصمت المطبق، كانت صفوف، تُسمع تصرخ: "افتحوا". أعيدت الكلمة بالعربية عدة مرات وتوقّف الرتل مقابل الجدار. فجأة انفجرت طلقات مسدسات بشكل مدو، وسطها تلقينا الأوامر المكرورة: "اشحنوا الأسلحة، إلى الأمام، إلى الحربة!" في نفس اللحظة بدأ الرصاص يصفر فوق الرؤوس القادمة من الأسوار. وسط ضجيج إطلاق النار أمسك البحارة المندهشون بنادقهم التي شحنوها، باحثين بالأعين عمّا يحدث، لكن كما كررنا بلهجة آمرة: "تقدمّوا أبنائي إلى الأمام إلى

الحراب!" اندفعوا دون أن يروا اتجاهاً واحداً، تبعاً لأول الخيوط، تحت قبّة باب الميناء. تستطيع مقدمة الرتل وحدها أن تقدم تقريراً عن الهجوم.

**بلاند**، الذي وصل إلى متوسط أعلى المنحدر بخمس أو ستة أمتار من الباب المشبك للميناء، لاحظ إغلاق مصراعيه المفتوحين منذ الصباح وتجمع خلفه عسكريون مسلحون. صرخ: "افتحوا." أعاد السيدان **بيرتي والزاكوري** بالعربية: "افتحوا." واصل المصراعان التقارب وعبْر القضبان المشبكة ردت طلقة لم تصب أي أحد بجروح بسبب الأرض المنخفضة. جرى **بلاند**، بلا توقف، إلى الباب وبضربة عنيفة بالكتف أزاح واحداً من اللوحين في اللحظة حيث سعينا جاهدين إلى دفع القفل. تراجع حرس العسكر وجرّ باندفاع، لكن **بلاند** ظل فوق العتبة، انقلب وأمر: "اشحنوا الأسلحة إلى الأمام إلى الحربة!" أعاد الرقيب البحري أوامره، ووصلت الصفوف الأولى أمام الباب. أرسلت المقاومة حمولة أخرى، وفي هذه المرة اخترقت رصاصة يد **بلاند** الذي كان يلوح بسيفه. سقط السيف. رفعه بيده اليسرى وهو ينهض: "إلى الأمام، أطلقوا النار كما تشاؤون!" ارتمى وراءه **لاباست** واستلم قسمه من الجند وهو يكرر: "هيا ابنائي، الشجعان، إلى الأمام! إلى الحربة!" قادهم تحت قبو الباب التي اجتازها جرياً. لكن، بفتح ممر تحت جدار الجمارك، توقف فجأة: اخترقت للتو رصاصة صدره، محطمة ترقوته اليسرى وخرجت بالقرب من عموده الفقري؛ لم يستطع الصراخ؛ أدمي فمه لكنّه احتفظ بموقعه وواصل تحمّل المسؤولية في مقدمة رجاله.

أطلقت المجموعة الأولى النار على كل مركز الجمارك تقريباً، إذ أن الناجين منه هربوا أو اختبؤوا وراء أكياس الشعير المكدّسة في الطريق. في أعلى المنحدر، أفسح رشق النار الطريق ونفذت الكتيبة إلى داخل الدار البيضاء، وهرعت إلى الحربة و لم تتوقف بعد كل قفزة من 50 متراً فقط إلا من أجل وابل جديد من إطلاق النار. هرع العرب إلى السلاح وأطلق الجنود القادمون من المنطقة المحصنة باندفاع رشقات بنادقهم واختبؤوا بزوايا البنايات. اجتاحت الحملة كل شيء في طريقها. ظل الجنود فوق الحصون يطلقون النار على جوانبنا. كان الرصاص يلعلع بالشوارع المجاورة وفي أجزاء من نوافذ منازل أو فتحات دكاكين. حاولت المخافر التي موضعها **مولاي لامين** ببيت السيد **لامب** (Lamb) وبالسجن سدّ الممر. فرّق وابل النيران المطلق بسرعة في منافذ الشوارع أو الملتقيات المعارضين. من لم يقعوا أرضاً هربوا من أجل العودة عبر انعطاف وراء الطابور. كان البحارة محاطين وآخر الأرتال مكتظة عن قرب. تلقى العريف البحري **تيري** (Thiéry)، المكلّف برشق البنادق الذي كان يسير في الوراء بجانب الطبيب، رصاصة في الفخذ. تكسرت ذراع البحار بنّاء السفن السيد **كيشي** (Guichet) بالقرب من العريف البحري الممرض **روزك** الذي اخترقت رصاصة خرجه. فهم الجرحى أنه لا يمكنهم إيقاف السير. استند السيد **تيري** على الدكتور **بروني**، واستند **كيشي** على الممرض **روزك** وواصلوا السير بمشقة تاركين وراءهم شرشراً من الدم. اقترب المغاربة أكثر. رأينا الملاّح الشراعي **مايار** (Maillard)، الذي كان موجوداً مع البحارين النسافين الصغار بالصف ما قبل الأخير وهو يلتفت، يصرخ: "لكن، دكتور إنهم كلهم على استعداد!" توقف الطابور من أجل تحرير ملتقى طريق

بواسطة وابل من النيران. استغللناه من أجل أن يكون وجهاً لوجه مع المهاجمين. سدد البحار النساف السيد **لو كار** (Le Gars) نحو العرب الأكثر قرباً الذين كانوا يمرون على عتبات الأبواب. لم يستطع **مايار** إطلاق النار لأنه كان يحمل بندقية خاصة برجال القنصلية، وبالتالي لم يتوصل بخرطوش، فصُرع بضربات عقب بندقية من حوله. استطاع باقي البحارين النسافين **ديفي** (Dufaix) **ولو بري** (le Bris) **وكازيل** (Gazel)، أن يشحنوا مسدساتهم في الطريق، لأنه عند النزول من السفينة، لم يزودوا بالخرطوش، نقوا المكان؛ من كان في الوراء هرب ونجح في الابتعاد عن العدو بما يكفي لمواصلة متابعة الأغلبية مع انخفاض وتيرة الجرحى.

في المقدمة استمر **بلاند** في المضي قُدماً. سدد الرجال المهتاجون بقذائفهم الدقيقة والأكثر غزارة وبهمتهم الغاضبة نحو كل من كانوا موجودين أمامهم. على طول الطريق، بالقرب من قنصلية السويد، قامت الحربات بتمشيط أحياء الفقراء والأكواخ القصبية. في آخر منعطف، طلب **بلاند** من السيد **الزاكوري** مشيراً بسيفه إلى أشجار القنصلية: "هل هو هذا؟ –نعم يمينا أمامك." ساروا حينها أمام القنصلية حيث يوجد مخفر مكون من 35 جندياً تابعين للمخزن، انضاف إليهم متعصبو المسجد المجاور. صرخ فيهم السيد **الزاكوري** بالعربية: "ابتعدوا، ابتعدوا!" اندلع صراع قصير؛ تواصل إطلاق النيران؛ ذبح جنود وتماسك آخرون، هرب الناجون تاركين المكان فارغاً، من على سطح القنصلية تلاحقت نيران على قدر ما يراد في الشوارع. لكن الباب ظل مغلقاً. صرخنا: "افتحوا، افتحوا." مع الضرب بشدة على المصاريع. كان المدافعون المتجمعون بالسطح، حول **كوسم**، مشغولين كثيراً

بإطلاق النار إذ لم يكونوا يفكرون سوى في المدخل الذي أقيم عليه متراس بواسطة بيانو السيد **مالبيرتي**. وأخيراً أجابت أصوات فرنسية، أزلنا الأثاث القنصلي ونفذ البحارة إلى الحديقة.

كان **بلاند** هو **آخرمن** دخل، اتخذ الرجال موقفاً خلفياً من ممّره من كل جانب، وبرؤيتهم سترته البيضاء محمرّة بيده المدماة، صرخوا: "يحيى الملازم!" فهموا أنه بدونه، لم يكن بمستطاعهم الدخول إلى الدار البيضاء ولا الوصول إليها في نهاية المطاف. لم يستطع **لاباست** (Labaste) التحمل أكثر. اضطجع منهكاً، مختنقاً بالدم، ملتفتاً نحو الدكتور **بروني** بعينين قلقتين وبتلك النظرة الصامتة المستفهمة التي تعني الكثير من الأشياء لدى من أحسوا بالموت.

تمدّد **تيري** جاراً ساقه و**كيشي** مسنداً ذراعه هو الآخر، شاحبين كل ما اشتد النزيف. نقل الطبيب مساعدي العريف البحري الممرض إلى الطابق السفلي على اليمين، في غرفة الطعام المزينة بالأقواس العربية والألواح النحاسية، والتي تتناوب مع أواني فخارية مصنوعة بفاس مع انعكاسات زرقاء وخضراء. قدّم الدكتور **ميرل** دعمه المتفاني والموارد الدوائية المخصصة لحالة الطوارئ بمستوصف الأهالي.

كان ينبغي حينها اتخاذ تدابير من أجل عمل ممتد، ودون تضييع أي دقيقة. لقد هيّج إطلاق النار العرب. كل من كانوا يملكون سلاحاً نارياً هرعوا إلى الطرقات والساحات والمنازل والمسجد المجاور للقنصلية، وكانوا يطلقون النار على الحيطان، وفي الحديقة، وعلى السطح، وعلى أي مظهر للشكل الإنساني

حيث بدا. من صومعة مسجد الباشا كان المغاربة يشرفون على أبهاء القنصلية وأمطروها بالرصاص. كان قد أصدر أمر للبحارة بالدخول إلى المنزل. كان أغلبهم في حاجة إلى بضع دقائق من أجل استعادة توازنهم. في تلك اللحظة حيث كان الدفاع ينتظم، حدث هجوم في مكان جد ضيق ومزدحم، جد خطر. من أجل تجنب تركيز الأهالي على القنصلية كان **كوسم** قد رفع الإشارة المتفق عليها مع **كاليلي**: "اقصفوا المدينة العربية**!**" ترنّح العلم دون أن تتخذ **كاليلي** قرار التحرك. فعلى متن السفينة أراد القائد ترك الوقت للفرقة العسكرية للوصول إلى القنصلية، وفضلاً عن ذلك تم تحويل الانتباه عبر الوضعية المرعبة للقوارب التي قادتها إلى البر شركة الإنزال.. في اللحظة التي اختفى فيها رتل الجنود تحت باب الميناء ظلت القوارب متقطعة السبل على الشط الرملي، مع عدد قلقل من العمال والملازم الثاني لسفينة **دو سيزيو**.

كان جنُود القايد المحميين وراء فتحات الأسوار يطلقون ناراً تتغذى على السفن. كان الرصاص يُفرقع في الماء، انهارت الذراع اليمنى المخترقة للسائق المساعد **رافيري**، ثم سائق الزورق البخاري السريع **لورو**، الذي سقط مرفقه الأيسر المهشم. لم يكن لسفينة **دو سيزيو** سوى بعض الرجال معفيين من الأشغال. عندما دخل ملاّحوها الشراعيين إلى الماء بلغ بطونهم من أجل جعل المراكب تطفو، أشار وسدّد المدفع الصغير ذي 37 ملم لمركب الخدمة. ضربت واحدةٌ من قذائفه الباب، أخْلى الآخرون الشاطئ. من أعلى المنطقة المُحصّنة، المشرفة على الميناء، كان المغاربة يحاولون قذف قطعهم القديمة وتعْبئتها بقنابل من حجر أو من حديد خام. أطلقوَا النيران دون تحديد نقطة الوصول. ردّ

**دوسيزيو** على الهجوم بفعالية، وواصل وحافظ على القيادة إلى غاية أن يتم التمكن من جر القوارب بواسطة الزورقِ الحربي. هكذا تمكن من الابتعاد رفقة أسطوله الصغير كاملاً وجرحاه وعماله الذينٍ أنقذهم. لاحقه الرصاص إلى الحافة حيث اخترق كشافاً ضوئياً.

تم تتبع التحولات المفاجئة لهذه العودة من جسر **كاليلي**. واعتُقد أن الأمر يتعلق بنزهة عسكرية، وحينها، تم التفكير في الرفاق الذين بقِي كثيرون منهم ربما إلى الأبد على البر. عادت القوارب. تمّ رفع الجرحى الذين فقدوا الكثير من دمائهم. دوّى قصف نيران الرشق أو لعلعة رصاص البنادق التي كانت تُسمع بتميّز في هدوء الصباح بأ لم. أبلغ القائد **أوليفيي** أن إشارة القصف ترى. كان منقبض القلب وهو يتساءل عن ما يجري وراء الأسوار وماذا وقع لجيشه الصغير داخل دروب مدينة يبلغ عدد سكانها 30 ألف نسمة، لم يرد اتخاذ قرار إلا عند الرمق الأخير. لكن القنصلية ألحّت: "لقد وصلت الفرقة العسكرية، اقصفوا المدينة العربية." بعد بضع دقائق من التفكير، شعر القائد، رغم تردده، بأنه مقيد. لقد كان المخرج الوحيد الذي تبقّى له لتحويل جهود المعتدين إلى منازلهم وإنقاذ ما ينبغي حمايته. أصدر الأمر إلى ضابط المدفع، والملازم الثاني للسفينة **برانجي**، بإطلاق النار على البريّج البارز الذي قصف قواربنا، ثم بعد ذلك التصويب نحو المنازل العربية الأكثر إزعاجاً للقنصليات وإيقاف العصابات التي كانت تحاول التسلل من البادية إلى المدينة. فَهم كل الضباط الذين بقوا بالسفينة أنه سيكون ربما خلاص البَحارة الملقون على الأرض. بشكل عفوي وضع كل واحد نفسه في خدمة

المدفعية وحلّوا محل مدفعيي سرية الإنزال. تكلف الميكانيكي الرئيس، السيد **بارو** بمصاعد الحمولة وبتمويلها بالقذائف؛ صعد الميكانيكي الرئيس الآخر السيد **أرنو** إلى منصة الصاريٍ ليقيّم إطلاق النار وكتابة الإشارات؛ صار الملازم الثاني **ليج** رقيباً في إطلاق النار، ضمّد المفوض السيد **لوري** جرحى القوارب وطلب طبيبٌ إسباني مجنّد في ما بعد الزوال ضمادات، فلم يجد شيئاً لأخذه. تكلّف **دوسيزيو** بالأخبار وتكلف الضابط المساعد، السيد **شاسبول**، باحتياطات إطلاق النار داخل السفينة.



هدّمت القذائف الأولى المدفع الذي كان قد قصف الزوارق، لتسقط بعد ذلك على الطرق والأماكن الواقعة بالقرب من القنصليات وأبواب المدينة. لم تتأخّر الأسوار المخترقة، وتحطيم القذائف، وتهدم السطوح، وإطلاق الشظايا في خلق تأثير مجد:

أفرغت الأماكن المجاورة للقنصلية. أصبح صفير الرّصاص، والضجيج الخافت الذي أحدثه سقوطها على طولها على الأسوار والمصاريع، أكثر بعدا. تنفّس البحّارة الصعداء بالشعور بأنّهم مساندون بمدافع السفينة، تسلّوا بالتعرف على صوت كل ضربة: "خُذْ، إنه **بابتيستين** (Baptistine)! هذه المرة، إنه دور **جيني** (Jeannie) !" كانوا مكدّسين خلط ملط على السلّم، في الأروقة في غُرف الطابق الأول ومُرتمين في الظلام لأن الشباك كان مغلقا، لا يعرفون ما يجري، يسمعون طلقات بنادق من كل مكان أو طلقات نارية مُصمة للآذان، كانت الأسر المحتمية بالقنصلية ضحية للذعر. انطرحت بعض النساء بلا حراك، لم تكن تتوفرن على القوة لإفساح الطريق. أخريات كن مهتاجات يسألن أو يشكين عند مرور ضابط صف: "أتعتقدون فعلاً أنّنا نستطيع الصمود؟" أريد أن أعرف جيداً– لكن نعم، لا تخشين شيئاً، ابقين هادئات، دعننا نعمل– يا إلهي! والعرب أين هم؟ وقيل أمس فوق **دومانتيان**، تطلبون منّا التماسك: كان يستحق أن تؤكدوا لنا أنّه لا يوجد أي خطر لكي تضعونا في وضعية مماثلة!"

عبرت امرأة نشيطة وثابتة العزم، ذات شعر أبيض، عن تفانيها وخدماتها للجميع. التقاها الداخلون الأوائل إلى القنصلية بالبهو، والمسدّس في يدها، ثم في المنزل الذي احتله البحارة، لقد قالت للدكتور **بروني**: "إلى ماذا تحتاج بالنسبة لجرحاك؟ للماء الساخن، للشاي، للقهوة؟" إنها السيدة **ميكري**، والدة نائب القنصل. وأبدى ابنها الصغير ابن الخمسة عشرة ربيعاً نفس الحماس.

كان السلم المؤدي إلى السطح مليئاً بالبحارة الاحتياطيين. وكان الآخرون منبطحين على السطح، محتمين بالدرابزين،

يوجهون قذفات بطيئة، لكنها دقيقة، نحو كل الأماكن حيث يمكنهم رؤية خروج دخان صغير لخصم. بالمركز كان **كوسم**، يطلب منهم الاقتصاد في ذخيرتهم وألا يطلقوا الرصاص إلا بدراية، من وقت لآخر، كان دوي قذائف **كاليلي** يمر فوق الرؤوس لكي يسقط نحو باب مراكش كان يثير مزحات ساخرة. "إلى الأعلى، اصعدي إلى السماء! من يحب كثيراً، يعاقب جيداً!"

أقام الدكتور **بروني** بالطابق السفلي مستشفى ميدانياً ووضع به الجرحى. صارت غرفة الطعام الموجودة على اليمين، غرفة للتضميد، وأصبح مكتب القنصل الموجود على اليسار قاعة استراحة. كان **لاباست وتيري وكيشي** ممدّدين فوق أفرشة وأرائك أو كراسي مبطنة متكئين بهدوء تحت تأثير المورفين والدابرين. كان **بلاند** قد ضُمد في آخر الأمر وكان يحمل يده بإشارب دون أن يتوقف عن الذهاب والمجيء. بالحديقة لزم قسم من البحارة فقط المحتمين، بالقرب من المستشارية، المدخل الذي كان ما يزال موصداً بالبيانو.

****

**في الساعة السابعة والربع** تمت الإشارة فجأة من السطح إلى أن واحداً من الأهالي يحمل رسالة ويحرّك بجنون ما يشبه راية بيضاء. تمت مواربة الباب وقدّم المندوب كلمة من قنصل إنجلترا قائلاً إن **مولاي لامين** يطلب هدنة عسكرية، ورد عليه السيد **ميكري** أن **مولاي لامين** والقايد **سي بوبكر** ينبغي أن يحضرا شخصياً للتشاور بالقنصلية. بعْد ربع ساعة أدخلا معاً إلى المستشارية، وهي قاعة صغيرة، خالية من الأثاث، مؤثثة بمائدة كبيرة وبعض

الكراسي، استرخى **مولاي لامين** على أريكة، كان وجهه متحللاً. لقد كان رجلا يبلغ من العمر ستين سنة، منتفخ الوجه، وجهه مثل خبز الزنجبيل، وله لحية قليلة الشعر، بدا متعباً ومريضاً. كان ضحية لذعر كان لا يُجيد إخفاءه. كان العرق يتصبب من على جبينه، واتخذ خداه لوناً ضارباً إلى الخضرة. كان القايد **سي بوبكر** منتصباً على يساره يسعى إلى التظاهر بالجرأة وكان يبدو أساساً خائفاً على نفسه. كانت وجنتاه المحمرتان ورديتي اللون، لكن القلق بدا في تراجع تدريجي للصدر يصحبه من وقت لآخر بجهد. كانت نظراته تتهرب من نظراتنا وكانت تلتفت أحياناً نحو الباب كما لو أنه ينتظر مفاجأة. التمس **مولاي لامين** بأن نتوقف عن قصف المدينة، لكن أن نواصل قصف البادية من أجل منع القبائل من الدخول والنهب. تمت الموافقة بواسطة ثمانية شروط:

1 – تُوجه رسالة باسم المخزن تستنكر عدوان الصباح المقترف من قبَل جنود القايد؛

2 – نزع سلاح غير الموثوق بهم، مع إرسال أسلحة حرب وذخيرة؛

3 – غلق أبواب المدينة المؤدية إلى البادية؛

4 – إيقاف إطلاق النار على القنصلية؛

5 – توقيف الأفراد الذين أطلقوا النار على الرتل وعلى القنصلية، وتسليم المتّهمين مكبّلين، وإجراء تحقيق حول الأوامر التي أعطيت والرؤساء المسؤولين؛

6 – استعادة الأمن للأوربيين؛

7 – وضع شرطة حازمة وإقصاء الرجال الخطرين أو المشكوك فيهم؛

8 – مراقبة القايد الذي ينبغي أن يظل تحت تصرفنا بناء على طلبه والذي كان مولاي لا مين مسؤولا عنه.

ينبغي أن يتم إيقاف إطلاق النار على الفور.. تمّ الاتّفاق إلى غاية الرابعة بعْد الزوال من أجل استيفاء باقي الشروط. وعد **مولاي لامين** بِكل شيء. وأعلنٍ أنه ستكون لنا فوراً رسالة يعترف فيها رسمياً، كما فعل شفوياً هنا، بأننا هوجمنا من قبَل جنود القايد رغم أوامره، فاجعة تأسف لها بعمق ومن أجلها كان على استعداد لإرضائنا. وبما أن نظراته كانت موجّهة في الغالب إلى سترة **بلاند** التي كانت ملطخة بشكل كبير بالدماء، انتهى بتقديم أسفه لإصابته. اتفقنا على إرسال شروط الهدنة إلى القائد **أوليفيي** من أجل الموافقة عليها. ثم بعد ذلك لم يعد الشيخ قادراً على أي شيء وركن إلى أذرع خدمه الذين رفعوه فوق بغلته، وقاده موكب حاشيته القليل وهو يجري نحو دار المخزن. كانت الساعة تشير إلى التاسعة. للأسف كانت النوايا الحسنة للسلطات المغربية منهكة. اندفع البدويون بالمئات نحو المدينة من كل الجهات. فيما أشعل بعضهم خراطيشهم بضواحي القنصلية من أجل حبْسنا. واجتاح الآخرون الحوانيت والبيوت وطالبوا بفديات، ونهبوا وسرقوا ثم حملوا بطريقة ممنهجة الأشياء والناس مربوطين مع جحوش.

تحمّل الملاح في أول الأمر كل ويلات النهب.

****

**في السابعة وعشرين دقيقة** أشرنا من القنصلية إلى **كاليلي** "أوقفوا إطلاق النار**!**" لكن أمام الاجتياح الشامل الذي شنّته القبائل، كان ينبغي الرد في العاشرة و20 دقيقة تحت طائلة تعريض الدفاع للخطر.

كان القائد **أوليفيي**، بعد هجوم الصباح، قد أشار من **دو شايلا:** "تعالوا على الفور إلى الدار البيضاء، زيدوا في السرعة، اجعلوا هيئة الإنزال على أهبة النزول إلى البر." لا يمكن التفكير في السير مرة أخرى في طريق الميناء، لأن الباب كان قد أعيد إغلاقه ثانية في وجه رتل **كاليلي** والمرور عبر الدروب الصغيرة المكوعة، على طول البيوت المليئة بالعرب، لم يكن سالكاً. كان ينبغي العودة إلى مشروع النزول عبر الخليج الصغير **لسيدي بليوط**، وتسلّق حائط السور على مستوى مجموعة بيوت قنصلية البرتغال. كانت النوافذ ذات المصاريع الخضراء السهلة المراقبة عرضاً تطل مباشرة على الشاطئ وتشرف على السور. كان يكفي إزالة الشبابيك وربط سلاليم بالحبال. تكلف **كوسم** رفقة قسم من الجنود والبحارين النسافين الصغار بطريق الدخول هذه. رافقه الدكتور **بروني**. بعد أن تم إخلاء الطريق والساحة المجاورة للقنصلية عبْر طلقات نارية، وصلنا إلى قنصلية البرتغال. بينما ثبّت **كوسم** رجاله على السطح، كان النسافون الصغار يزيلون القطع وهاجموا الشبابيك أمام أعين الدكتور. كانت الشبابيك جد متينة وكان العمل يتقدم ببطء، وتم شغل الحائط بعد ذلك حيث تم تثبيت سلالم حبال نازلة إلى الشاطئ، لكن لم تكن هناك سوى أربعة نوافذ مهيأة، حين أرست **دو شايلا** على المرفأ في الحادية عشرة و25 دقيقة.

انطلقت هذه الطرادة فجأة من تولون يوم فاتح غشت، كانت في البداية قد وصلت إلى وهران حيث تلقّت الأمر بالذهاب إلى مضيق جبل طارق من أجل أن تربط **كاليلي** بالتلغراف اللاسلكي بطنجة، **كاليلي** التي لم نكن نتوفر على أي أخبار جديدة عنها. بعد أن تمّ التواصل يوم 4 غشت في السادسة مساء مع **كاليلي**، كان ينبغي الالتحاق بطنجة بطلب من البعثة الفرنسية. كلّفها **الكونت دوسان أولير** حينها بنقل قائد الكتيبة **مانكان** (Mangin)، قائد الشرطة الفرنسية المغربية، على متن **كاليلي**، ثم الذهاب إلى مازكان بسبب الإنذارات الجديدة بالخطر. في منتصف الليل، انطلقت **دو شايلا** مجدداً. وفي الخامسة صباحاً، استعادت الاتصال مع **كاليلي** التي أعلنت عن مهمتها، ثم على إثر الدعوة السريعة للقائد **أوليفيي**، أسرعت بأقصى سرعة.

عند وصولها، كانت هيأة الإنزال، التي عُهدت إلى ملازم السفينة **بيركاس دي بوتي توار** (Bergasse de Petit- Thouars)، جاهزة للنزول إلى البر، وكان حقل رمي قطعها مكشوفاً، كانت زوارقها مهيأة للنزول إلى البحر؛ كان الطاقم، بمركز القتال، ينتظر لحظة افتتاح إطلاق النار. تحت أمر القائد **أوليفيي** الذي جعلته أقدميته قائداً للمرفأ، أرسى القائد **بنوا** (Benoit) سفينته نحو الغرب كي يحارب البادية بالأماكن القريبة من المدينة. كان القنصل قد أشار بالفعل في الحادية عشرة و45 دقيقة: " بدت منطقة تجمع الفرسان هي البساتين الخضراء الواقعة بالجنوب. أتريد **دو شايلا** التموقع من أجل تفجير ذلك المكان؟ ستكون استعدادات في الوقت المناسب من أجل تأمين الإركاب. في أي وقت سيكون ذلك؟ أرسلوا أكبر عدد ممكن من الخرطوش والمدافع والمسدسات والمدافع الرشاشة

والكلاليب والسلاليم من أجل تسهيل التسلق. وليذهب السيد **كوسم** صحبة فرقة عسكرية لاستقبال النازلين من السفينة بالسور البرتغالي. أطلقوا النار بشكل مستعجل على **سيدي بليوط** وعلى الناس المترصدين خلف الأرض المشجرة الذين يطلقون النار نحونا."

****

**في الثانية عشرة و28 دقيقة** أرسلت **دو شايلا** أولى طلقات نيران المدفع التي ضربت الأماكن المحيطة بشاطئ **سيدي بليوط. في الثانية عشرة و45 دقيقة** أشارت **كاليلي**: "تنزل هيئة النزول من **دو شايلا** إلى البر."المؤشرات على أفضل رسو قدمها السيد **دو سيزيو** إلى السيد **دي بوتي توار** (Du Petit-Thouars)، جمع هذا الأخير الملازمين المساعدين للسفينة الموجودين تحت إمرته، السيدين **كيارد بانسيل** (Gaillard-Bancel) **وبرنار دو تيسيي** (Bernard de Teyssier). وحدد الإجراءات التالية؛ يجر القارب البخاري زورق النجاة والقارب إلى غاية 500 أو 600 متر من الشاطئ. بعد إعطاء الإشارة، تحاط القوارب الخشبية بمجاديفها وتصطف من كل جهة على جانبي قارب بخاري، ثم تطلق النار من مدفع 37 ملم، وفي نفس الوقت على الملاجئ المختلفة والبساتين والحواجز إلخ التي تأوي العدو؛ بمجرد ما يتم إخلاء الشاطئ، يشغل القارب الأقل سحْباً للمياه المجاديف وينزل السيد **كايار بانسيل** إلى البر في أقرب وقت ممكن رُفقة نصف قسم من الجنود، من أجل تأمين النزول من السفن الكبيرة.

في الطريق، توقفت القوراب لحظة كي تسمح للرائد **مانكان**

الذي وصل في زورق حربي من **كاليلي**، حيث عيّن للتو من قبل القائد **أوليفي** كقائد أعلى للقوات النازلة، بأن يعبُر على متن الزورق البخاري. في اللحظة التي سيتم فيها إسقاط المقطورات، تمحو القوارب طلقات البنادق الأولى التي انطلقت من بساتين **سيدي بليوط** وورش الميناء. أمر السيد **دو بوتي توار** بتنفيذ الخطة المتفق عليها وترد المدافع ذات 37 ملم على الرصاصات المغربية التي فجرت الماء حول حواف السفن. عزّز قسم **كاليلي** الذي يرأسه السيد **كوسم** من سطح القنصلية البرتغالية حركة **دو شايلا**. حرثت المدافع الصغيرة في مقدمة قوارب الخط الساحلي، فُتشت حواجز الصبار، وتم اجتياز جدران أماكن مسورة، وشرع العرب المختبئون وراء هذه الملاجئ في الفرار.

ارتمى السيد **كايار بانسيل** ونصف قسمه بالماء بمجرد ما لمست عارضة قاربهم القعر. احتلوا كثيباً رملياً يشرف على الجون من حيث تتوجه نيران الرشق على البساتين المجاورة، بينما تم الإنزال الكامل. تحت أوامر السيد **دو بوتي توار** والسيد **دو تيسيي**، قفزت سرية **دو شايلا** بنشاط إلى البر، وأرسلت بعض الرشقات إلى البادية ووصلت جريا إلى حائط قنصلية البرتغال الذي تسلقته. تمت العملية برشاقة دون تسجيل أي خسائر. كان دفاع القنصلية معززاً ب 110 رجل ليصل عدد البحارة الفرنسيين إلى 180. وخلف **دو شايلا**، وصل الملازم الثاني للسفينة و12 بحاراً إسبانياً من الزورق المسلح **ألفارو دو بازان** القادم من الكناري والذي أرسى قرب **كاليلي** في العاشرة صباحاً. كان قائد هذه السفينة ذهب منذ وصوله إلى القائد الفرنسي الذي لم يبخل بتقديم المساعدة المتفانية. رسا القارب الإسباني المقاد من قبَل الزورق الحربي لـ**كاليلي**، بجانب قارب **دو شايلا** وفرقتها العسكرية،

واجتاز الجدار عبر سلّم، وصل في الواحدة والنصف إلى حديقة قنصلية فرنسا.

بتعيين الرائد ضابط ركن **مانكان** قائداً أعلى للبحارة النازلين، كان القائد **أوليفيي** قد ألحق به الملازم الثاني للسفينة **بلاند**، الذي **لم** يكن، بسبب جرحه، قادرا على الاحتفاظ بالفعل بقيادة كتيبته. تبعه الملازم الثاني **كوسم**. في الواقع صار ملازم السفينة **دو بوتي توار** مساعداً أول للرائد **مانكان** مع البقاء على رأس كتيبته. بمراكمة السيد **دو بوتي توار** لهذه المهام والتي كانت الفرقة العسكرية أكثرها أهمية وكانت تتضمن المدفعية والتي منحته حراستها سلطة طبيعية على رفاقه، أصبح الذراع الأيمن للقائد **مانكان** الذي كان يعيش معه ليل نهار.

على الرغم من هذه المساعدة، كانت مهمة القائد **مانكان** جسيمة جداً. كان عليه أن يتفق مع القنصل على كل الإجراءات التي تهم المدينة والجاليات الأجنبية، وكان يتولّى إدارة كل العمليات العسكرية، مثل العلاقات بين قائد الفرقة العسكرية الإسبانية والسلطات الأهلية التي كان عليه أن يستعملها أحسن في حالات الدفاع. كانت الأتعاب تتزايد عليه في كل لحظة تبعاً لتزايد عدد اللاجئين. من حسن الحظ، أن **مانكان** ألحق المميزات العسكرية بمواهب كونه مستعرباً. كان يعرف كيف يضيف إلى هذا التعاطف الشخصي يجعله يستميل كل مرؤوسيه. شرعت كتيبة **دو شايلا** على الفور في العمل. لاحظ ملازم السفينة **دو بوتي توار** على الفور أهمية الحصول على الجون الصغير من حيث تتم الاتصالات مع البحر. كان هناك نقص في المدفعية. طلب من قبطان الفركاطة **بنوا** أن يرسل مدفعين من حجم 65 ملم.

عمل على سحب واحدٍ من المدافع ذات 37 ملم من القارب، الذي كان متموقعاً فوراً، على حاضن المدفع المهيأ على الفور على سطح القنصلية البرتغالية من أجل تشطيب البادية والشاطئ. في تلك الأثناء، نفّذ نوتيو قوارب **دو شايلا** تحت أوامر الأشغال الموجهة إلى جعل الإنزال وإفراغ الحمولة أقل خطورة ما أمكن. بالرغم من التموج والصخور الحادة في الأسفل وإطلاق النار، استطاعت السفن، بُعيد ذلك، وضع ذخيرة المدفعية والأشياء الضرورية. نقلها بحارة القوارب بأذرعهم إلى غاية حائط مبنى قنصلية البرتغال حيث رفعه رفقاءهم، وصل مدفعان من 65 ملم قبل المساء إلى القنصلية.

كان تحت تصرف القائد **مانكان** 200 بحري، من ضمنهم 180 فرنسي؛ لم يكن يستطيع ملازمة أبواب المدينة ولا حي منها. لقد كان الأمر يتعلق بحرب شوارع بما تحمله من مفاجآت. وكان الحل الوحيد العملي والكافي هو احتلال ثلاث مجموعات بيوت للجوء والدفاع عنها بضمان الاتصالات بينها وبين البحر. كانت المجموعة الأولى مكونة من القنصليات المتلاصقة لفرنسا والسويد والنمسا وهنغاريا والولايات المتحدة الأمريكية والبرتغال، مع المنازل المحيطة المؤدية إلى شاطئ **سيدي بليوط** التي كانت تسمح بربط الاتصال مع المرفأ. احتوت المجموعة الثانية على قنصلية إسبانيا وبعض الفنادق المجاورة حيث كان كثير من الإسبانيين لاجئين. وتشكلت المجموعة الثالثة من قنصليتي إنجلترا واليونان مع المنازل المجاورة التي كانت قد استقبلت بعض الأسر والمحميين البريطانيين. في الوقت الحالي بخصوص العلاقة بينها، فقد تمت تغطية جزء المدينة الذي كان يضم أغلب المنازل التي يشغلها الأوربيون.

تم الاتفاق على تلك الخطة، أرسل الرائد **مانكان**، حوالي الساعة الثانية، البحارة الإسبانيين لسفينة **بازان** لحماية قنصليتهم. قادمهم الملازم الثاني للسفينة **كوسم** على رأس مجموعة من الجند مكونة من 20 رام من **كاليلي** ورفقة السيد **نوفيل** كمرشد. عانت المجموعة من إطلاق نار حاد على مقربة من الأبناك التي شن عليها العرب هجوما شرسا. وصلت المجموعة دون تسجيل أي خسائر. عند العودة، ذهبت نفس مجموعة **كوسم** مع قنصل إنجلترا، السيد **مادن** (Madden)، من أجل تقديم الحماية لقنصليته. كان هذا الأخير في وضعيات دفاع غير مواتية جداً من جراء الاشتباك داخل البنايات حيث كان المقتحمون يسيرون بمأمن إلى غاية السطوح المشرفة على الموضع. كان الخطر يتزايد من ساعة لأخرى. قَبِل السيد **مادن** الملازمَ الثاني **دوتيسيي** وبحارة **دو شايلا** الذين صاروا نواة مركز المداومة. بعض نوتيي الإشارة الذين كانوا نازلين بقنصليتي إسبانيا وإنجلترا، جعلوهمم على اتصال، عبر إشارات الأذرع وبواسطة فنار الليل، مع قنصلية فرنسا التي كانت وحدها مكلفة بالتواصل مع السفن الموجودة بالمرفأ. عند العودة وجد **كوسم** عصابة من الشاويين كانت قد نصبت خيامها وسط الشارع من أجل احتلال الحي وجمع الأشياء المسروقة، لقد شتّتها بالحربة. كانت مجموعة بيوت البرتغال والنمسا وفرنسا والسويد هي مركز الدفاع وأبقت على العلاقات مع البحر، كانت في حاجة بأن تكون مشغولة بقوة. كان الملازم الثاني **كايلار بانسيل** رفقة 27 بحاراً من **دو شايلا** ومدفع 37 مكلفاً بحماية الجناح الأيسر بملازمة قنصلية البرتغال والبنايات التابعة لها. من هناك ضمن أمن جون **سيدي بليوط** من الطرف ومن سور المدينة والشاطئ حيث كانت السفن راسية.

كانت قنصلية النمسا، المتموقعة بين قنصلية البرتغال والبنايات التابعة لها، تحظى بأهمية الربط و لم يكن ممكنا مهاجمتها إلا من جهة واحدة. كان قنصل ألمانيا والمواطنون الألمان لاجئين هناك. تم وضع حرس مكون من 7 بحارة من **دو شايلا**. أما بالنسبة لدار فرنسا، فقد تقرر من حيث المبدأ أن **دو شايلا** باستثناء أقسامها المنفصلة بشكل دائم، ستحرسها بالتناوب مع **كاليلي** مرة كل يومين. ووضعت الفرقة العسكرية الأخرى كاحتياط من أجل خدمة المخارج والتواصل وأشغال مختلفة. **فدو شايلا** هي التي تولت الحراسة خلال ليلة 5 و6 (غشت) إلى غاية منتصف نهار اليوم الموالي.

بلا مدفعية السفن والتي كانت قد أقيمت للتو على البر، ربما كانت المهمة غير متناسبة. من أجل تخفيفها، كان ينبغي توقع هجمات ومخططات العدو، بناء على الحصول على معلومات القائد **مانكان** الذي تزود بها عبر خليفة **مولاي لامين**، **سي علال بن عبو**، وهو موظف ذكي وودود وكان قد عرفه مؤخرا في خدمة بطنجة. جرى **سي علال** نحو القنصلية وكان سعيداً بالإشارة إلى الذكرى التي احتفظ بها والخاصة بحسن التفات ودماثة خلق القائد، أبلغه ما كان يتوفر عليه من معلومات عن القبائل ونواياها، كشف عن الضيق الذي لا حول ولا قوة له **لمولاي لامين** ومخاوفه من أن يكون ضحية النهب وأن يعامل بعنف مثل كل الوجهاء الأغنياء، مسلمين وغير مسلمين، وعن رغبته في أن يكون محمياً من قبَل كتائبنا بتأدية الخدمات المتلائمة مع وضعه، وأخيراً أن لا يكون متخلّى عنه للشاويين وأن يلجأ إلى **كاليلي**؛ عبّر **سي علال** عن أمله الشخصي بالبقاء قرب القائد. قُبل العرض. بيّن

للأوربيين والعرب أن سلطة المخزن بررت تدخلنا وكانت تعمل بالتنسيق معنا ضد العناصر المثيرة للفتن. كُلّف **سي علال** بطمأنة **مولاي لامين** وليؤكد له بأننا لن نخل بالدفاع عنه وبالنسبة لكل من طلبوا حمايتنا، لكن بما أنه ممثل في أعيننا لسلطة السلطان، فلن نستضيفه على متن **دو شايلا** إلا في حالة إخلاء المدينة وإذا اضطررنا نحن إلى مغادرتها في النهاية. كان من الملائم أن يتم الحرص على أمنه، خصوصاً خلال الليل.

تم تهييء هجوم عام. كانت القبائل تعول على اغتنام فرصة الظلام وتعب يوم من المعارك من أجل رمي الأوربيين بالبحر بأي ثمن. كانت القبائل تعتقد أنها بفضل الدروب المظلمة ستصل إلى القنصليات دون أن تُرى وأن مدافع الفركاطة، على أي حال، لن تستطيع لا تمييزها ولا بلوغها. تمّ اتخاذ الخطوات اللازمة قبل حلول الشفق من أن أجل دحرها. نُقلت الذخيرة وتمّ وضع مدفعي 65 ملم بالربض بساحة القنصلية. واتُخذ قرار بقطع كل الاتصالات بين مجموعة بيوت الدفاع في السابعة مساء، من أجل تجنب أي سوء فهم، فلن تكون هناك دوريات معتادة. ستكون كلمة "فرنسا" هي كلمة النظام والتجمع، ستخدم الإشارة التعرف في حالة الخروج. في طريقه إلى منصبه سقط القناص المساعد **جوردي** (Jourdy) من **دو شايلا** رفقة جزء من حائط سطح قنصلية البرتغال وكسرت ساقاه. تمّ اصطحابه وقد خرجت العظام من الجلد فوق كاحليه. على الرغم من شدة القصف، لم تسجّل جروح جديدة لدى البحارة منذ الصباح. أُصيب واحد من المتطوعين هو السيد **ميرسيي**، وهو جندي سابق، وفنان غنائي، تلقى رصاصة حطمت بندقيته على وجهه. ضُمّد على الفور،

وأراد استعادةٍ موقعه، كانت حالة **جوردي** جد خطرة، كانت تتطلب تدخلاً في وقت وجيز. قرر الدكتور **بروني** أن يتم ذلك في الليل، بما في ذلك قطع ذراع البحار **كيشي** من **كاليلي**. قُلص العضو بالقطران بطلقة نار قذفت عن قرب، لا يمكن أن يحتفظ بها دون مخاطر. طلب الدكتور من القائد **أوليفيي** أن يرسل رفيقه، الطبيب الرائد من **دو شايلا** الذي سيحمل معه العدة اللازمة. في تلك اللحظة وصلت **فوربان** (Forbin)، وهي سفينة من الدرجة الثالثة، إلى المرفأ تم استدعاؤها من جزر الأزور[10] حيث كانت فيه مهمة. تم إخبارها من قِبل **دو شايلا** في التاسعة صباحاً، عبر التلغراف اللاسلكي، وكانَت مستعجلة للسير إلى المدفع.

أرست على بُعد 400 متر من **كاليلي** في الخامسة و45 دقيقة. بسبب الوقت المتقدم وبسبب الأخبار الخطيرة القادمة من مازكان حيث كان الأوربيون في خطر، أرجأ القائد **أوليفيي** إنزال سرية الإنزال إلى البر وأصدر أمراً للسفينة بالتوجه لقضاء الليل شمال غرب المدينة، بهذه الطريقة، فنيران مدفعه ستتقاطع مع نيران **دو شايلا** ويطوقا الدار البيضاء بحزام حمائي. ستكون دفة القصف مضمونة عبر ضوء الكشافات.

على البر، كان البحارة يوجدون، منذ السابعة، بموقعهم للحراسة. أعطيت التعليمات في حالة الطوارئ. لقد تمّ الكشف عن المسافات والنقط البارزة للنواحي من أجل القصف. كان

10 – جزر الأزور (Açores) هي إحدى منطقتي الحكم الذاتي في البرتغال، وهي عبارة عن أرخبيل يتألف من تسعة جزر بركانية في شمال المحيط الأطلسي على بعد 1360 كم (850 ميل) إلى الغرب من البر الرئيسي لجمهورية البرتغال. [المترجم]

الجميع في تمام اليقظة، مستعداً للقاء العدو الذي سمعت ضجته المضطربة في باب مراكش خلال فترات الهدوء. في الوقت المحدد، امتدت أشعة ضوء الكشافات على البادية، فجأة لاحت للعيان من الظلام عصابات الشاوية وهي تتوجه نحو المدينة.

دوّى المدفع وأطلقت ثلاث سفن شرارات انفجرت وسط المجموعة العربية. يا له من تنوع في المشاهد والانفعالات قدّمته حينها دورية بالقنصلية خلال الجزء الأول من تلك الليلة الجميلة من شهر غشت! في الحديقة، بالكاد ما تبيّنا أشجار الدفلى المزهرة حيث كان البحارة مضطجعين تحتها على سبيل الاحتياط. كانت معدات قطع مدفع 65 ملم موضوعة بجانبها، ملفوفة داخل أغلفتها السمراء. على الرغم من طلقات البنادق التي كانت تتبادل وراء حائط الشارع ودوي القذائف التي كانت تشق الجو، كان المدفعيون يشخرون. بالطابق السفلي، على اليسار عند الدخول، بمكتب القنصل في غرفة واسعة يضيئها بالكاد مصباح صغير، كان **لاباست** (Labste) نائماً، جد شاحب، على سرير هُيّئ على عجل، كان محاطاً بوسادات برزت عليها لفافات الضمادات المحمرّة بالدم الجاف. بفضل المورفين والإركوتين، كان نومه عميقاً وكان تنفّسه منتظماً. كان **بلاند** في الجهة الأخرى، ويده في إشارب، ممدداً مغطى بأكمله على كرسي طويل. كان **تيري**، بفعل جُرحه على مستوى الفخذ، نائماً على بطنه، مثل الجثث التي صرعها مرور الكتيبة في الصباح. على اليمين، بغرفة الأكل، ذات المصراعين المغلقين وذات النوافذ المفتوحة، كانت هناك إضاءة قوية. كانت مصابيح ضخمة تضيء بلمعان كتلة كبيرة من الرجال نصف عراة، ممدّدين على مائدة من خشب

بلوط كانت تجمع فيما مضى ضيوف القنصل: ممرضون مرفوعو الأكمام، وأذرع عارية، وأيد مخضبة بمعقم البوطاس، يتحركون حول الدكاترة **أفروس** (Averous) و**بروني** و**ميرل** المتحلّقين حول سيقان تسيل دماً. قدم الدكتور **بيتي** (Betti)، وهو طبيب إيطالي، الكلوفورم فيما كان الجراحون يغرزون الأدوات والسدادات القطنية في اللحم. كانت الأطباق الفاسية والصحون الخزفية القديمة، المنتزعة من الحائط والمرتبة على الكراسي والمعقمة بالكحول كي تُطهّر، ملآنة بالغاز والضمادات والمحاليل.

بعد أن تحمّل **جوردي** بتر ساقيه، حمل النقالون فوق المائدة البحار **كيشي** من **كاليلي**، الذي حُطّمت ذراعه وصارت شلْوا ممزقاً إلى غاية الكتف. كان على الشاب الشجاع، نجار الهياكل، التخلّي عن طاولة العمل وتقبّل بشجاعة البتر قائلاً للدكتور الذي كان يشجعه: "أنا أثق فيك. افعل ما تراه جيدا." صرّ المنشار في العظم وفصل عضواً كان قد ابيضّ وفتُر.

على درجات السلم، كان الحراس يراقبون. بالطابق الأول، في غرفة صغيرة غير مفروشة، حرر السيد **ميكري** على عجل تقاريره القنصلية، وكان محاطاً بالسيد **نوفيل** والسيد **الزاكوري**. وبالقرب من ذلك، بالرواق وغرف السيد **مالبيرتي**، كان اللاجئون ممدّدين بشكل مختلط؛ من حين لآخر، كانت بعض النساء تهُبْن من النوم بفعل دوي المدافع أو الكوابيس. على السطح، كان البحارة، كما لو أنهم يتربصون، يتحدثون بصوت خافت عن المشهد الذي يشرفون عليه. من السفن كانت تنطلق القذائف المضيئة وكانت تدك البحر والمدينة والبادية. تراءت داخل الشعاع الأبيض للأضواء الكاشفة، فجأة، في العمق الأسود، أبواب ضخمة

وجوانب من الحيطان المسنّنة، وحواجز من الصبار، ومجموعات من الشجيرات تعلوها نخلة، وقوات عسكرية للعرب ببرانس رمادية. بالكاد ما كُشفت جماعة من المغاربة وتم تثبيتها بالضوء المسبب للعمى، حتى أعلن قصف مصم للآذان قذيفة: سقط قبس من نار، هرب ذوو البرانس وسط المنطقة المعتمة.

****

**في الحادية عشرة** تضخّم المشهد بشكل مأساوي. أطلق النهابون النار على الحي اليهودي. أرسل الملاح الذي اشتعل نحو السماء حلقات من الدخان طويلة محمرّة؛ بما أنه يقع في أقصى المدينة، سرعان ما ظهرت منازلها البيضاء على خلفية النار. من حسن الحظ أن الرياح لم تكن تهب من جهة القنصلية؛ ألقي الدخان مرة أخرى نحو المبنى الخارجي، امتدت النار الكثيرة بعمق وأضاءت السماء، ودوّت ورمت شرارات، وتمددت على شكل شرارات شديدة أو كانت تتحطم على شكل تاج من النار تحت رحمة الهواء الذي كان ينعش وينقّي الدار البيضاء.

رأينا في منتصف الليل فجأة صخباً مصمّاً لمد صاعد قادم من الميناء ومن الشاطئ. صار إطلاق النار، الممتد إلى غاية هناك، عنيفاً ومتقارباً، كانت قنصلية السويد مطوّقة بصفير الرصاص. سار المغاربة بجانب الأسوار وكانوا متقدّمين بُغية الاستيلاء على قنصلية السويد، وهي بيت واسع وموقع ممتاز بزاوية قنصلية فرنسا المشرفة عليها جزئياً. صار الخطر ضاغطاً. أطلق من أعلى برج المراقبة بقنصلية فرنسا، السيد **دو بوتي توار** صفارة الإنذار من أجل تحذير الكل من هجوم عام. طلب من القائد

**مانكان** أن يرسله إلى قنصلية السويد، كانَ يوجد بمركزها، الذي مونته **دو شايلا**، ميت وثلاثة جرحى وطَلَب المساعدة. بسبب شدة الهجوم وجهل القوات التي شنت الهجمة، فضل الرائد انتظار هدنة بفضل الأضواء الكاشفة التي قاطعت أشعة الضوء، بُعيد ذلك كُشف العدو وقُصف بالبنادق والمدافع. اعتصم وراء حواجز أو حيطان من أجل المناوشة في انتظار التمكن من اللوذ بالفرار دون أن يكشفه ضوء السفن.

حين مرّ هذا الأمر الشديد، لم يُرد **كوسم** وقسم من **كاليلي**، بالرغم من احتياط تلك الليلة، مغادرة السطح، ذهبوا لتعزيز الحراسة بقنصلية السويد، واصطحاب الضحايا، الذين كانوا كلهم من **دو شايلا**. في البداية العريف البحري المدفعي **بوردولو** (Bourdoulous)، المقتول من ساعته برصاصة اخترقت أذنه وخرجت من محجر عينه المقابلة. حين وصلت جثته إلى المستشفى الميداني في ساعة ونصف، لم تسمح العمليات والتضميدات، التي أجريت له تحت ضجيج الرصاص على المصاريع، بالانشغال بها فوراً. عمل الدكتور **بروني** على وضعه في غرفة صغيرة ملاصقة لغرفة الأكل تم استعمالها كمكتب.

استيقظ السيد **لوري** والسيد **بيرتي** اللذين كانا نائمين بها، فجأة واستجابا للواقع بسبب ضرورة أن يتخليا عن مكانهما لجثة. وبعد ذلك تم حمل المدفعي المساعد **كيو**، الذي اخترق بطنه من جانب إلى آخر. للتو أعلن الشاب المسكين أنه لن يتألم. أنعش وضمد مؤقتاً، وتمدد بلا شكوى. كان الجريحان الآخران مصابين إصابة بليغة قليلاً ما؛ كان العريف البحري المدفعي المساعد **سيفيليك**

(Sevellec) قد تلقّى رصاصة اخترقت قدمه؛ وكان نوتي الشراع الضابط **ديبوا** (Dubois) قد تلقّى رصاصة نفذت فوق عظم كتفه وخرجت من فوقه. عولج على الفور، عاد **ديبوا** في الصباح إلى متن **دو شايلا**، لكن **سفيليك** طلب البقاء في المستشفى الميداني، فضلاً عن ذلك، كان نقله غاية في الصعوبة والخطورة.

# الثلاثاء 6 غشت 1907م

واصلت نيران السفن طوال الليل تشتيت التجمعات في البادية التي كانت تحاول أن تتشكل من جديد بالقرب من أبواب المدينة. في المدينة بمجرد ما تمت رؤية العصابات، من السطوح، تتسلل على طول المنازل المحيطة بالقنصليات، انفجرت نيران رشق. تراجع العدو على الفور، اختبأ واستمر في التراجع. اشتعل الملاح إلى الصباح عبر هبات بحسب نزوة الهواء.



كان جسم **بوردوليو**، ملفوفاً داخل كفنٍ، ومغطى براية ثلاثية الألوان [إشارة إلى العلم الفرنسي]، ومحاطاً بسيقان عالية لأشجار الدفلى البيضاء المزهرة ونبتة إبرة الراعي الحمراء كان ممدداً في انتظار المأتم الذي حدّد في ما بعد الزوال، لأنه تم الإعلان من مصادر أهلية عن محاولة هجوم ضخمة ستشنها القبائل في الصباح.

احتياطاً من هذا الهجوم، أرسل القايد **مانكان**، ابتداء من الخامسة صباحاً قسماً من **كاليلي**، يرأسه **كوسم**، اصطحب إلى قنصلية فرنسا أسرة إنجليزية تسكن بيت **لامب** وكانت قد فضّلت البقاء به بسبب مرض أصابها بحمى تفويدية، نصّب بها مخفرٍ مكوّن من أربعة رجال. لكنه كان جد ضعيف لكي يظل معزولاً، ولم يكن من الحكمة تفريق قوات غير كافية. كان الوقت قد حان بالمناسبة، لأن **كوسم** ورجاله كانوا قد استُقبلوا على عتبة المنزل بنيران كثيفة منطلقة من دكاكين الجمارك في أقصى الطريق. أصيب العريف البحري للمناورة، **شوكي** (Choquer) من **كاليلي**، بوابل من الرصاص في صدره أسفل ثديه الأيمن، جُرح **كوسم** في أصبع قدمه. رد القسم، بصرامة، بنيران رشق من أجل إخلاء الطريق، لكن كان من الصعب العمل بشكل فعّال أمام أعداد غير مرئية ومحتمية، كما أخبر **كوسم** الأشخاص الذين يجب عليه حمايتهم أنه منحهم خمسٍ دقائق من أجل مغادرة مسكنهم. بدت المهلة قصيرة، خصوصاً بالنسبة للنساء؛ لكنهن اقتنعن فيما بعد، عن طيب خاطر، أن انتظارهن كان نبلاً من **كوسم**، وهوٍ جريح، تحت وقع الرصاص، وافقن على المغادرة على الفور بدلاً من أن يجتزن مرة ثانية الأهوال التي عشنها في الليلة السابقة.

حين وصلن آمنات وسليمات عرضت واحدة منهن مواهبها كممرّضة حاصلة على شهادة. إنها الآنسة **سبيني**، أخت نائب قنصل إنجلترا بمازكان التي كانت تعالج التيفوس بمنزل **لامب**. كان هذا الأخير قد تم إخلاؤه إلى قنصلية البرتغال، على كل حال استقبلت الآنسة **سبيني** بحماس بالمستشفى الميداني الفرنسي حيث أن تفانيها الذكي ومهارتها التقنية وأساليبها البسيطة والنشيطة جعلتها تحظى باعتراف الكل بُعيد ذلك.

بالكاد ما ضمد **كوسم** و**شوكي** حتى انطلقا مع قسمهما من أجل استلام أسلحة وذخيرة، كان مغلقاً عليها بدار المخزن أو دار القايد. لم يخف **مولاي لامين** مخاوفه الشخصية، بتحذيرِ القائد **مانكان** من هجوم القبائل الوشيك الوقوع. كان مهدداً بالنهب من قبل الشاويين مثل كل سكان المدينة الأغنياء، وكان يفضل أن لاَ يسقط الخرطوش والبنادق المغلق عليها بدار المخزن بين أيدي العدو المشترك. في ثلاث رحلات تم نقل ثلاثين بندقية و1400 خرطوش. كانت تلك الخرجة واحدة من الخرجات الخطيرة، لأن بيت القائد كانت تشرف عليه صومعةٍ مسجد، ممتلئ بالمتعصبين، حيث أصبح إطلاقِ النار دقيقاً أكثر فأكثر. كانت كل السطوح، المشغولة عسكرياً، تردّ على المسجد. عمل قصف الإسبان بشكل خاص على خلق سعار فوق الصومعة، لدرجة أن الكثير من الرصاص كان يسقط بأكمله بالنواحي في الشوارع والساحات. كانت البيوت والحوانيت المجاورة ممتلئة بالشاويين المترصّدين، كانت تقذف عبر المنفذ من أجلٍ طمأنة رباطة جأش من كانوا ينهبون بالداخل. تم الترحيب أيضاً بمساندة سفينة **فوربان**.

**في السادسة و10 دقائق** أشارت **كاليلي** إلى تلك السفينة. "أرسلوا ما استطعتم هيأة إنزالكم، معززة بمؤونة ثلاثة أيام من الطعام والحد الأقصى من الخرطوش." ردت **فوربان**: "نحن مستعدون للسير في السادسة والنصف، لقد أطلقنا بعض القذائف على عدد كبير من الفرسان المتراكمين بجانب المنزل الأبيض." لحظات بعد ذلك أنزلت سفينة **فوربان** بجون **سيدي بليوط** 44 بحاراً يرأسهم الملازم الثاني **بيري** (Berry)، ثم ذهبت السفينة لترسي ليلاً من أجل أن تضرب من مدفعها طريق مازكان حيث تتمركز عصابات من الشاوية.

أفرغت شركة **فوربان** بمجرد وصولها فندق **دافيد**، من حيث تظهر المدينة إلى غاية باب السوق. بعد أن تم تفتيش المناطق المجاورة، تركت ثمانية قناصين لحراسة الوضع، وجاءت بعد ذلك للتعاون مع مواقع الدفاع. كانت قبائل كثيرة تحاول الهجوم على مجموعة البيوت الفرنسية البرتغالية، بعضها عبر باب **سيدي بليوط**، والأخرى عبر أبواب السوق. كُلفت مدفعية السيد **دو بوتي توار** بإبعاد الهجوم من الجهتين. منذ السادسة صباحاً، تم إرباض واحد من مدافع 65 ملم على سطح قنصلية فرنسا. كان تثبيته صعباً، بشكل خاص، وكان خطراً لأن المدفع لم يكن لديه مجال الارتداد الضروري وأن السقف خضع لردود فعل خطرة. كانت لدى السيد **دو بوتي توار** فكرة إسناد العجلات والساق على أكياس الشعير النصف فارغة، بعد أن تم إفراغ الطابق السفلي، سدّد قذيفة غير مباشرة إلى باب السوق، إذ أن العديد من السطوح العالية جداً كانت تحجب المسدّد. في ضربتين أو ثلاثة، صُوبت قذيفته: فتلقت مجموعة من الفرسان والمشاة فجأة شظايا الحديد قادمة من مكان غير مرئي.

وجد التجمّع المرتقب للعرب نفسه في غاية الارتباك. بمجرد ما ظهرت ثلة من الجنود، حتى أمطرت بالقذائف. توقف الراجلون أو اختبؤوا لحظة، شبت الخيول فجرّت الفرسان. إنه بالكاد ما تمكنت مجموعات قليلة من الوصول إلى المدينة.

من جهة **سيدي بليوط**، كان المغاربة يقتربون بسهولة كبيرة جداً، وانسلوا وراء الكثبان الرملية للشاطئ، انتظر السيد **كايار بانسيل** أن يجدهم في متناول اليد من أجل ضبط قذيفة مدفع 37 ملم التي ستجبرهم على التراجع نحو الشاطئ، حيث سيكونون ضحية لمدافع السفن. في التاسعة نجحت عصابة مكونة من 500 إلى 600 شاوي راجلين، مصحوبين بحشد من الفرسان في التمركز وراء بعض المنحدرات وكانت تحاول القيام بهجوم شامل. لم يصمد اندفاعهم مدة طويلة أمام قذفات مدفع 37 ملم. أطلق المشاة صرخات متوحشة، قاموا بدورة ببنادقهم، جمعوا بعض الأموات أو الجرحى بينما وثب الفرسان فوق خيولهم المرعوبة أو تهاووا تحتها. ضعفت الكتيبة وتشتت. ما أن أجري إحكام رمي **كاليلي** و**دو شايلا**، حتى شاركت قذائف الرصاص في الأمر. برز تردد مجموعات. أعاد المغاربة الكرة بقليل من الحماس، ثم ارتبكوا بسبب القتلى والجرحى وهروب الأشخاص الأقل إصابات وغياب قواد على رؤوسهم، وانتهوا بالتشتت. سرعان ما وصلوا إلى غاية مسجد **سيدي بليوط** الذي سيضمن لهم الانتصار على المتعصبين. كان غضب العصابات مع ذلك يتطلب مدة لتثبيطه. لقد تكونت مرة أخرى في البساتين أو وراء الكثبان لتظهر بعد مدة من التوقف. حين كانت توجد على بعد 300 أو 400 متر من القنصلية رماها القصف الدقيق والمصوب جيداً

للسيد **كايلار بانسيل** في البوادي حيث لاحقتها مدافع السفن. على مدى البصر، حُرثت الطرق بالهاربين، خيول تهرول بلا فرسان، أو قلبتهم بلا حراك على ظهورهم أو عملت على المشي على الرغم من وجود عضو محطم أو خناق مدمى. لقد صارت الهزيمة شيئاً فشيئاً عامة. في نهاية الصباح، كان الهجوم قد صُدّ بشكل نهائي.

أراد القائد **مانكان** أن يستفيد من مدفع ذي 65 ملم على سطح قنصلية فرنسا من أجل التخلص من صومعة مسجد القايد الذي صارت قذائفه جد دقيقة وكانت تهدد بمنع اتصالاتنا عبر الإشارات مع السفن. لم يكن في مستطاع بحار المغامرة برأسه فوق درابزين القنصلية دون إثارة رشقة صغيرة. في البداية، كانت الرصاصات تضيع بفعل استخفاف العدو بسبب علو البنادق، الآن، كانت رؤية القذائف قد درّبت العرب وكانت هناك صعوبات كبيرة لحماية نوتي الإشارة الذين كانوا ينقلون الرسائل، واقفين، يحركون الأيدي أو العين على المنظار.

كان العدو يتوفر على بنادقٍ **موزر، ووينستستر ومارتيني** وبعض بنادق **شاسبو**، ولكن أساساً **موزر**. بالكاد كان بإمكاننا أن نرى من أين جاءت الرصاصات التي كانت تقذف في حمى بياض براق وبرصاص بلا دخان. كنا نسمع فقط صفيرها أو اصطدامها حين تسقط على طولها. لقد كانت في الغالب منهكة بالرصاص الداخلي والمجلوب على نيكل فضي، بحيث إنها كانت تنفتح في جروح على شكل فطر. كان الرائد **مانكان** الذي كان على اتفاق مع القائد الأعلى **أوليفيي**، قد قدم لوحدة المدفعية، على البرّ كما على السفن، أوامر شكلية من أجل تجنّب

المساجد بسبب حساسيتها ولأنّها يمكن أن تكون أماكن للجوء بالنسبة لغير المحاربين. لكن في الحالة الحالية بعد أن تم استدعاء **سي علال بن عبو** لمعاينة هذه الوضعية أنذر **مولاي لامين**، إن لم توقف الصومعة إطلاق النار سيتم تفجيرها. أجاب عم السلطان، نظراً لعجزه وحالة الدفاع عن النفس، كان يحق لنا اتخاذ الطرق الصارمة: تضع بعض الضربات الصومعة في حالة مثيرة للشفقة جداً وأن القناصين لن يستطيعوا أبدا الاختباء بها خوفاً من أن تنهار على رؤوسهم. تم وقف إطلاق النار إذن: كان يكفي فقط إنذار المساجد بنموذج وكان سقف القنصلية شاهداً عبر تحطيم جلي كان يخشى هو أيضاً المدفعية.

وحينما لم يكن القائد **أوليفيي** يعتقد بأنه مرخص له بأن يصرف منذ مدة طويلة **دو شايلا** عن مهمتها، وبالرغم من الخدمات التي قدمتها السفينة، جعلها تغادر متجهة نحو مازكان عند الظهر، مبقية فقط على سرية الإركاب التي لا غنى عنها في النزول من السفينة. عاد الدكتور **أفروس** إلى متن السفينة في الصباح، بسبب الاستعداد للإبحار مصطحباً معه أدواته الجراحية والجريح **ديبوا** الذي كان يستطيع المشي، كان من المستحيل إجلاء آخرين، لاستعادة القارب إلى جون **سيدي بليوط**، كان على الطبيب والمرضين أن يطلقوا النار على العرب المترصدين وراء المراكب الجانحة. أصابت البحار **إيتورنو** (Etourneau) رصاصة على مستوى فخذه اليمنى وهو يوجه المدفع ذي 37 ملم المتموقع في مقدمة المركب.

أجبر هذا الحادث وانطلاق **دو شايلا** التخلي عن نقل جزء من الجالية الإسبانية إلى المرسى. كان الملازم الثاني للسفينة، قائد الفرقة العسكرية **الدون ألفارو دوباسون،** قد جاء للقاء السيد **دو بوتي توار** في الخامسة مساء وطلب منه تنظيم هذا النزول الجماعي بُغية إخلاء القنصلية الإسبانية المزدحمة. عند وعْد السيد **دو بوتي توار** بأن يعمل ما أمكنه من أجل إرضاء حلفائنا، لم يخف أن هذا الفعل بدا له غير قابل للتنفيذ، سواء بسبب الحرس الضروري لاقتياد الناس إلى الشاطئ والمخاطر التي يمكن أن يتعرضوا لها خلال الإركاب بالقوارب وبسبب استحالة الحصول على قوارب بأعداد كافية. كان اندهاشه كبيراً، إذن، من رؤيته وصول 60 إسبانياً في الصباح إلى قنصلية فرنسا يسألون عن طرق للذهاب إلى المرفأ. كان ينبغي أن يفسر للناس المساكين أن رغبتهم غير قابلة للتحقق: بما أن القنصلية كانت ممتلئة عن آخرها: تمت استضافة جزء منهم، ووجه الجزء الباقي إلى مجموع المنازل الملاصقة لقنصلية البرتغال حيث انتزع السيد **كايلار بانسل** بعض الغرف من بحارته كي يمنحها لهم.

صار مشكل التموين صعباً بالنسبة للدفاع، بسبب الضيق والحصار والاضطرار لتغذية حشد من اللاجئين. كانت **كاليلي،** الشاغل الأول، قد احتفظت بمطبخ القنصلية حيث يتم تهيئ طعام كل الفرقة العسكرية. كانت غرفة صغيرة مسودة بالدخان، مفصولة إلى قسمين بواسطة حاجز ومزودة بفرن يدوي في زاوية. يتم الدخول إليها إما عبر الساحة أو عبر المكتب، تحولت إلى مستودع، حيث كان يرقد **بوردولو** رقدته الأخيرة. كان تاجر السلاح المستأجر **بوانو** (Boinot)، الذي لم يكن يستطيع التغيب

بسبب مراقبة الأسلحة وتوزيع خراطيش، يراقب في نفس الوقت تجهيزات الطهي. كان البحارة الذين لم تكن لهم خدمة، يأكلون في المطبخ على مائدتين. الأولى بجانب الفرن كان يرأسها **كوسم**، محاطة بقسم الاحتياط الذي كان قد عيّن بنفسه حرسه الشرفي. كان يجلس كل واحد عشوائياً، دون أن يثيره مكان ما. انتبذ **كوسم** وحده زاوية قرب الباب حتى يكون في مستطاعه القيام بسرعة في حالة طارئ. كان **بلاند** والدكتور **بروني** قد جاءا، حين كان لهما متسع من الوقت، وارتميا وسط الرجال الذين اندفعوا كي يتركوا لهما مكاناً. كانت الأخوة الحقيقية للنبلاء تبدو حول نفس القصعة. تبادلوا الفرشاة والسكاكين القليلة جداً واستخدموا نفس القنينة. حين سدوا الرمق شرعوا في رواية أحداث اليوم، القصف من سطح لسطح، الملاحقات بالطرق، إزالة الأكواخ بالحربة. كان المدفعي **ألكيي** (Alquier) يشرح حيله الحربية بخصوص مغاربة الصومعة. حين لاحظ المحراب من حيث تنطلق بعض الضربات الدقيقة، امتنع عن الرّد لمدة طويلة، في بعض الأحيان، كان يلوح بقبعة بحار على مسافة لإثارة مطلق النار دون الرد عليه. حمله هكذا على أخذ الثقة وأن يظهر نفسه زيادة على ذلك. حين طُمئن الآخر، كان مرئياً بما يكفي، أحكمه ورماه بالرصاص كما ترصّده. في معظم الأحيان، ظلت بندقية العدو صامتة، أفرغت كوة السور وأعلن **ألكيي**: واحد آخر! إلى الرفاق المنبطحين قربه.

كانت مجموعة الطعام هذه الموجودة داخل المطبخ الصغير المسود، حيث كان يُرى كل واحد يعمل، حيث تم تناسي كل الاختلافات، وحيث لم يتبقّ سوى فرنسيين ذوي مزاج جيد،

مبهجة أكثر مما كانت تأكله. لقد كان تنظيم **كاليلي** بسيطاً. وكان تنظيم **دوشايلا** أيضاً ما يزال جد مؤقت، لأنّ رجالها النازلين في اليوم السابق دون حقائب ظهْر وكانوا يلبسون لباساً خفيفاً ما أمكن، من أجل النزول بالشاطئ وتخطي سور **سيدي بليوط**، كانوا محرومين من المواعين ومن الأطباق ومن القدور بل حتى من محلّ يمكنهم أن يحضروا فيه طعامهم. لكن واحدة من البديهيات الملتمسة كثيراً من الميناء هي: "دبر أمرك بنفسك." في زاوية من الساحة، فوق نار مرتجلة، صار وعاء للغسيل وعاء ضخماً لطبخ الحساء، استعملت عُلب التعليب الفارغة كقدور وجُمعت بعض أواني الصفيح عشوائياً من الشوارع التي أفرغها النهابون والتي زودتهم بأوان. بذلك عرفت جماعة المطبخ كيف تقدم حصصاً من الطعام للمحاربين الجائعين الذي انطلقوا مجدداً نحو مراكزهم.

بقنصليتي إنجلترا والبرتغال كان السيدان **دو تيسي** و**كايلار بانسل** قد استعملا المواد التي وضعت رهن إشارتهما من قبل مالكيها الذين اقتسموا مع حماتهم الجراية المشتركة. كان للرائد **مانكان** وملازم السفينة **دو بوتي توار** مقر عام في مكتب الاستشارية: اقتصرا على تزويد إرساليات من فرقة عسكرية أو أخرى. في أول مساء بالعشاء، في الساعة التاسعة وجدا نفسيهما مجتمعين أمام خبز التزويد وعلبة صغيرة من تلك المادة الغذائية المحفوظة التي كان يسميها البحارة، بلا احترام، "لحم القردة". بالنسبة للاجئين المساكين كان العوز والمخاوف من كل صنف يمنعهم من أخذ بؤسهم بحماس. وزّع عليهم البحارة كل ما أمكنهم، وكانت القنصلية قد استولت على بعض الحيوانات، لكن معظم اللاجئين دفعوا ثمن احتمال إنقاذ حياتهم بحرمان

شديد. الضباط الذين رأوا سيماءهم الشاحبة خلال أيام الحصار تلك والذين شهدوا على نقاشات الآباء على قطعة خبز من أجل أبنائهم، لم ينسوا أبداً الانفعال الذي اعتراهم أحياناً. لقد كان السيد **دو بوتي توار**، الذي أنيطت به هذه المهمة الصعبة والمخيبة للأمل لتسوية كل تفاصيل الخدمة الداخلية، يفضل كما طلب بإلحاح إدارة مخارج كتيبته فيما بعد الزوال، لكن القائد لم يبد رأيه فيهم بأهمية كبيرة من أجل أن يحرم نفسه من خدمات ضابط خولت له رتبته السلطة على كل الفرقة العسكرية. في كل لحظة كان اشتغال المراكز المقامة داخل المدينة يثير بعض المشاكل والقرارات. لقد كان يتعلق الأمر برجال، بضباط صف، برسائل لتبعث، بأشياء مطلوبة من السفينة، بأخبار تقدم، بمعلومات تزود للرفاق الإسبانيين، بذخائر لتوزع، وبوكلاء قنصليين للاستماع إلخ. باختصار دور رئيس الأركان في مكان محاصر حيث تنقص الموارد.

كانت بعض الأسر ضاربة خيامها بالحديقة، بجانب قبور ضحايا 30 يوليوز. فضّل اليهود البقاء قُرب الإسطبل حيث كان يتم ذبح، من وقت لآخر، بهيمة ضامرة كانوا يقتسمون بقاياها. كان قسم الاحتياط مقيماً قرب الباب. كانت أمام نوافذ المستشفى الميداني، مجموعة من الشخصيات الرسمية تدور عن طيب خاطر وهي السيد **لوري** والسيد **بيرتي** والسيد **فيليب**، ظل **سي علال بن عبو** تحت شجرة قُرب المستشارية حيث كان الرائد **مانكان** يشتغل ويستقبل بلا توقّف.

في خضم هذا العالم المزدحم، كان نوتيو الإشارة يرفعون الإشارات، وقدّم رؤساء الفرقة العسكرية تقارير عن خرجاتهم،

كانت الأقسام تصلح شؤونها وكان ضباط الصف يجمعون عمالهم وكانوا يفتشون أحزمة الخرطوش، كان رجال الأعمال الإلزامية ينادون بعضهم البعض من أجل أن يتبادلوا المساعدات، كان فقط بعض البحارين النسافين المساعدين صامتين وهم يحفرون قبر **بوردولو**.

تم استثمار بداية ما بعد الزوال في الإبقاء على التواصل بين القنصليات بمساعدة الدوريات. كل فرقة عسكرية، وداخل كل فرقة عسكرية، كان لكل قسم دوره في الخروج والبحارة الذين كانوا يعرفونه كانوا يراقبون بغيرة إن لم تحدث أي تغييرات أو خطأ. كان **بلاند** قد خُدع وكان قد عُيّن من أجل إفراغ قنصلية الدانمارك التي لا يمكن الدفاع عنها. قسم كان قد سار بالفعل في الصباح، وهو القسم الذي تم إرساله على الفور بعدد قليل من الرجال ليسألوه عن سبب حرمانه من المهمة التي عادت إليها باستمرار، عندما اعتقد أنه كان يتصرف بشكل جيد دائمًا فيما يخص إطلاق النار وإصابة الآخرين. تم تصحيح الأمر على الفور، وعاد المندوبون منتصرين، ليس للعدالة التي تم الحصول عليها بقدر خيبة أمل أولئك الذين كانوا على وشك المغادرة.

أُرسل ثلاثون بحاراً من **فوربان،** يرأسهم رائد السفينة **بيري،** من قِبل الرائد **مانكان** للبحث عن بعض الأسر الأوربية العالقة في بيِوتها. وصلوا في الوقت المحدد من أجل الإتيان بها سليمة معافاة. كانت واحدة من تلك الأسر فرنسية وثلاثة إيطالية وواحدة إسبانية والعديد من الأسر اليهودية، التحق بالمجموعة حارس عربي لقنصلية فرنسا هو **عبد القادر بن احمس،** الذي اعتقد أنه اختفى أو كان ضحية لصداقاته الفرنسية. استعيرت

فرقة عسكرية أخرى من **كاليلي ودو شايلا**، بعد إفراغ قنصلية الدانمارك، تفقدت القنصليات المتخلّى عنها. كانت قنصلية ألمانيا سليمة؛ عكس ضواحيها، لم يلاحظ أي أثر للرصاص على الحيطان، وأي أثر للعنف. لقد تم الحفاظ على حصانتها الدبلوماسية. في مقابل ذلك تلقت الأبناك قصفاً شديداً، خُربت الأبواب وحُطم الأثاث وأفرغت الدواليب وانتزعت الجارورات. فُكت خزانة حديدية لبنك الدولة تحتوي على 60 ألف بسيطة ونقلت، لكن الخزانة الأخرى صمدت. طبعت على الخزانة الحديدية الكبرى أكثر من 300 رصاصة وآثار لا تحصى من التحطيم أو ضربات قضبان الحديد. حاولوا انتزاعه، وإضرام النار فيه، وتحطيمه بكل الطرق، لكنه ظل صامداً.

كان أثاث الشركة الجزائرية قد خُرب ونُهب وأُحرق جزء منه. في الشوارع المجاورة، التي تعرف أكبر نشاط تجاري، خلعت أبواب الدكاكين. حمل محتواها أو رُمي أرضاً. كانت ترى من الطريق العناية الدقيقة التي جرف بها الشاويون الحيطان حتى يكونوا واثقين بأن لا شيء ينفلت منهم، خصوصاً المخابئ. كان يوجد على الأرض تراكم أوراق وبقايا متنوعة شكلت قمامة سميكة. تم السير فوق طبقة من الأشياء المكسرة وانتزعت خرقات من الشقق المختلطة، وسط الكثير من الأشياء المكسّرة، جثث مغطاة بالذباب والأجساد عارية كانت تسبح في الغالب في الدم المتختر، انتفخت بسرعة، وصارت بشعة وذات رائحة كريهة. يبدو أنها ستنفجر، ما دام الجلد منتفخاً، نزّ كل الضباط وكانوا ممتلئين بحشرات مطنطنة. يا لها من مشاهد جرت الليلة الماضية بين الحيطان، حين جر متوحشو القبائل القرويين بعد

اغتصاب النساء ونهب المنازل بالقوة، السكان كعبيد! كان على سكان الدار البيضاءِ أن يندموا حين استضافوا محرضيهم صبيحة يوم 30 يوليوز! أرسلت دورية ثالثة تحت أوامر **كوسم** لإخلاءِ البنايات الملحقة للشركة المغربية التي استهوت دكاكينها أساساً العرب. هو، علاوة على ذلك، موقع متميز، لأنه يتم من السطوح الاستمتاع بنظرة جد ممتدة إلى الشوراع المؤدية إلى القنصلية، علىِ الجزء الشرقي من المدينة، على الحدائق، حيث تتكون مجدداً بلا توقف المجموعات التي شتّتها المدفع.

من جهة قنصلية البرتغال، عمل **كايلار بانسيل**، أيضاً على تنقية نواحي مسجد **سيدي بليوط** بالحربة، التي كانت ملجأ قناصين مغاربة لم يتركوا أي مهلة في موقعه. مرة أخرى كنا أمام المشكلة الشائكة للمساجد. كانت قبة **سيدي بليوط** الولي المبجل، الذيٍ اعتبره بعض الأهالي حامي الدار البيضاء؛ محجاً يُتردد عليه كثيراً، ولا سيما من قبل النساء. واحتراماً للدين الإسلامي، كان هناك تريّب من تخريب قبة واحد من الأولياء المشهورين، من منطلق إنساني تم تركه كمكان للجوء الناس غير المهاجمين، لكن المتعصبين رددوا إشاعة تقول إن الولي يحرس قبره، ويحفظه من التدنيس، وأن كل المدافعين عنه ليس لهم ما يخشونه وكانوا يجتذبون لأنفسهم الحماة السماويين، وتباهى الشاويون، الذين كانوا قد لاحظوا انتقالنا، بزيادة في الجرأة. ظهر بحار بالنواحي، وفوراً كان الرصاص ينضح حوله. على المدى البعيد نفد الصبر. وتم الذهاب إلى عين المكان لحصد القناصين المختبئين بالحربة والذين لا يمكن الوصول إليهم بطريقة أخرى. كان من سيصل إلى المشتبه به أولا، وأحياناً الرجال، الذين يتصارعون مع بعضهم

البعض قليلاً، يتجنبون اتخاذ بعضٍ احتياطات الحذر. فهكذا جرح بحار **دو شايلا براكو** جرحاً خفيفاً على مستوى عظم الكتف.

فوراً بعد تضميده، كانت هناك جنازة العسكري العريف البحري **بوردولو** المنقول في الليلة الماضية بقنصلية السويد. لم نتمكن من الحصول على نعش أو إعداده، أمر الدكتور **بروني** بتغطية الجسم بثوب بساط مستعار من السيد **ماليرتي**. كان الصوف، غير القابل للتعفن في الأرضٍ، وخصوصاً وأنه مرشوش بمطهرات، يسمح بسهولة وكلياً بنقل الجثة التي ستعهد إلى الأرض، أي وقت تم اختياره بعد ذلك. كان السيد **دو بوتي توار** قد أمر بأن يتم الدفن باحتفال عسكري وأن يتم إخبار الضابط الإسباني: تمتم فرانسسكاني إسباني، هو الأب **جوزي سان أنطونيو ألفاريس** (José de San Antonio Alvarez)، بعض الأدعية وحمل بحارة **دو شايلا** رفيقهم إلى غاية القبر الذي حفر في زاوية من الحديقة، بجانب ضحايا 30 يوليوز. وجّه له الرائد **مانكان**، وضابط إسباني، ونائب القنصل السيد **ميكري** وعمال **دو شايلا**، والضباط الحاضرون واللاجئون الأوربيون ورجال فرق عسكرية احتياطية تحية أخيرة صامتة. وقام إطلاق نيران اندلعت من السطوح المجاورة مقام التصفيق.

****

**فيٍ الرابعة والنصف**، كانت هناك عودة هجومية للعرب ولّدت حذراً شديداً، تم شحن المدافع الصغيرة والقصف المعزز من كل الرجال المتوفرين، المسنودين بقوة مدافع السفن، أوقف السيل

المجتاح للقبائل الذي وجد مدخلاً سهلاً بالمدينة عبر أنقاض الملاح الداخنة. ارتأى القائد **مانكان** بحذر زيادة المراكز في الليل، لأن المواصلات ستكون غير صالحة في الدروب المظلمة. ذهبت دورية مزودة بواسطة **فوربان** ويرأسها الملازم الثاني **بيري**، لتزويد قنصلية إنجلترا بالذخيرة.

جاءتها أيضا ب 18 بحاراً من **دو شايلا** حملوا حاميتهم المكونة من 30 رجلاً. فدائماً الملازم المساعد **دو تيسي** الذي كان مكلفاً بذلك المركز بدفاع صعب بسبب عرقلة المنازل المجاورة. ترك السيد **بيري** بدوره 12 رجلاً من **دو شايلا** مع الرقيب البحري **بوزار** بقنصلية إسبانيا، وهي مركز نشيط جداً للقصف، لأنه كان يوجد في عمقٍ شارع ضيق داخل طريق مسدودة محاطة ببنايات عالية نسبياً من كل الجهات. كان واحد من المدافع ذات 37 ملم، أنزل من **دو شايلا** قبل انطلاقها قد رُفع فوق سقف فندق **دافيد** قرب قنصلية فرنسا. المكان الذي يسبقه والطريق الرئيسية القادمة من باب السوق كانت ستضرب بانتظام لا يطاق. لو جاء اندفاع العدو من المدينة العربية. احتفظت الشركة المغربية وقنصلية النمسا ومجموع منازل قنصلية البرتغال بنفس العدد كما في الليلة الماضية؛ لكن قنصلية السويد، بسبب الأخبار المتشائمة **لمولاي لامين**، اسقبلت 16 رجلاً من **كاليلي**. يُستنتج من ذلك أن دار فرنسا، المقلصة العدد بأقل ما يمكن، لم تحتفظ سوى بقسم من **كاليلي** وقسم احتياطي. ضُمد السيد **مردوخ** (Mordock)، وهو تاجر إنجليزي، وكان هو الصهر المستقبلي لوكيل قنصلية السويد، للتو بالمستشفى الميداني من طلق ناري تلقّاه خلف أذنه عند خروجه من بيته. قاده مرة أخرى الدكتور **بروني** إلى غاية

قنصلية السويد ليقدّم علاجاته لطفل. في هذه المناسبة عبّر الوكيل القنصلي السيد **فيرنو** (Fernau) عن إعجابه بقصف المدافع من السفن الفرنسية. قال: "لم أصدق أن نصل إلى دقة كهذه نحو هدف متحرك مثل الفرسان العرب. تابعنا، بواسطة منظار أو نظارة، آثار قذائفكم التي شتتت الشاويين. تقدّمت عصابة من المغاربة، سقطت قذيفة وسطها، ظل القتلى والجرحى في عين المكان، في حين أطلق الآخرون سيقانهم للريح. على أمتار، سحقت قذيفة أخرى البعض واستمرت الملاحقة إلى مكان بعيد، ونفس الأمر أيضاً بالنسبة للفرسان، انفجرت قنبلة، كانت بعض الخيول تركض وسط الغبار، والبعض الآخر يحاول النهوض وهم يعرجون فسقطوا مجدداً بُعيد ذلك، رفس الآخرون، قاموا بقفزات كبيرة وأداروا اللجام بسرعة، لحقتهم، على مسافة، قذيفة. تستحق **كاليلي** و**دو شايلا** أن تسمى الفركاطات الجهنمية كما سماها العرب الآن."

فمن السفينة، منذ يوم بأكمله، تابعت المدفعية تقدّمات العدو في السهل. كان الملازم الثاني **بيرونجي** (Bérenger) مستعجلا بكشف المسافات والنقط البارزة لكل الطرق. أيضاً حين كانت القذائف الأولى قد أوقفت كتيبة، توجهت القذائف الموالية لرش الهاربين بالممر حيث كانوا يجرون، وعملت على قتلهم. كان الراجلون، الفاقدون لصوابهم، يرتمون أحياناً بلا نظام، من جهة إلى أخرى، لكن الخيول المرعوبة بالضجيج ورائحة وانفجار النار، كانت تشبّ وكانت تعود بشكل غريزي بمنتهى السرعة عبر الطريق التي كانت قد سلكتها، حاملة لأسيادها كارثة جد أكيدة. استهوت هذه المطاردة المسدّدين، كان الشاويون غير

قادرين على التحقق بأنفسهم من الحساب، اختفت مهاراتهم الطبيعية من الملاحظة في مواجهة هاجس النهب والسرقة. كانت الأمخاخ الناقصة النمو للبدويين المساكين تتخيّل منازل الدار البيضاء مغمورة بالثروة وبالحلي وبالزرابي وبحقائب الدورو إلخ؛ ومليئة بالنساء. وفجأة غطاهم إعصار النيران.

كانت الليلة هادئة نسبياً. انشغلت القبائل بنهب الدار البيضاء. كانت المنازل، من واحد إلى آخر، قد فتشت واستقصيت. ما كان صالحاً للأخذ وضع في كومة من أجل أن يؤخذ. بعد أن تعرّض السكان والنساء والأطفال لآخر الإهانات، وخضعوا للجلد وضرب الأرجل حتى يدلوهم على المكان حيث خبؤوا النقود. كانت غنيمة وناس قد اقتيدوا داخل المبنى، حيث كانت تنتظم القوافل نحو الدواوير. انطلقت جمال وبغال وحمير محمّلة بأعباء ثقيلة، محاطة بقطيع من الأسرى، رجال ونساء وأطفال لم يحتفظوا أبداً بأي لباس. تم اقتيادهم بضربات الهراوات. إذا كان الحرس غير كاف، كان يهاجم في الطريق، ويُجبر على الاقتسام أو يترك لينهب من قبل سكان القبيلة التي يجتازون مجالها. غيرت عائلات أسيرة ثَلاث مرات مالكها، قبل أن تصل إلى نهاية استعبادها. على طول طرق الشاوية تم التخلص من ثروة ومصير سكان المدينة، يهود أو عرب الدار البيضاء. كانت كمية العبيد الناتجة عن نهب المدينة قد قادت إلى تخفيض كبير في الأثمان الاعتيادية. بمازكان وبالرباط تم بيع بعض اليهود ب 25 فلساً بل بتسع فلسات، واستُبدل آخرون بخرطوش: لم يكن أسيادهم قادرين على إطعامهم أو لم يكونوا يريدون إطعامهم.

# الأربعاء 7 غشت 1907م

تواصلت أعمال التخريب في كل أحياء الأهالي تحت جنح الظلام؛ جرت المناوشات حول المراكز الأوربية وكانت أساساً من أجل منعهم من التدخل. كانت تندلع، من حين لآخر، طلقات بنادق من هنا ومن هناك، مشيرة إلى أن مغربياً اعتقد أنه تمكن من رؤية بحّار على سطح قنصلية أو أنه لم يجد أي وسيلة أخرى غير هذه الوسيلة للقضاء على ضحية مقاومة. استأنفت نيران الرشق، عبر هبات، حين يرى حارسٌ عصابة تتسلل على طول الحيطان. كنّا نميز الرصاصات العربية، بشكل جيد، بصفيرها الخفيف جداً واللطيف جداً؛ تتحطّم على الأحجار أو على طلاء البنايات دون أن تخترقها. ينطرح رصاصها بسرعة على الحواجز.

كانت الأضواء الكاشفة للسفن ترسل رشات طويلة مضيئة، وكانت تستفز الظهور الشبحي لشريحة من المنازل البيضاء تماماً، بما أنه كان لها مظهر هادئ! لم يتم الإفلات منها إلا بإشاعة محاطة بالغموض. في بعض الأحيان كان المدفع يدوي، داخل سحابة ضوء، كانت ترى برانس تنبثق متوجهة نحو المدينة أو قافلة جمال تبتعد محمّلة ومحاطة بجمهور من الناس. لحقت بعض القذفات القافلة، ما دامت قد بقيت هناك مجموعة، ثم صمت الجميع من جديد. أحيانا بفضل تشتت عام، ضمِن بعض ضحايا الإرسالية تحرير رفاقهم في المحنة.

****

**في منتصف الليل**، وربع وجد نائب القنصل، السيد **ميكري** الدكتور **بروني** يراقب، وطلب منه أخباراً عن الجرحى. **لم** يكن هناك ولا واحد ينقصه شيء، كان الكل على ما يرام، نائمين باستثناء واحد. فيما بعد الزوال أرسلت **كاليلي** بقية المعدات الطبية وقدّم الدكتور **ميرل ما** تبقّى منها بمستوصفه الأهلي. هيأت السيدة **ميكري** الأمّ والآنسة **بينسي** محاليل مهدئة ومشروبات منشطة باعتدال. قطّعتا الشراشف والكلات والمناشف وقماش الشاش. تمت التغذية أساساً بواسطة بضَع بيضات كانت قد احتفظت بها السيدة **ميكري** الأم من أجل المرضى. في تلك اللحظة نُسيت الآلام في نوم عميق، **لم** يكن يزعجه ضجيج السلاح. فقط، بدأ المدفعي **كيو** (Guillou) من **دو شايلا**، المجروح جرحاً مميتاً، في الليلة الماضية بقنصلية السويد، يرفع صدره بصعوبة بالرغم من الحقنات المنشطة. تمدّد التنفس وصار النفس خفيفاً جداً. كانت العينان النصف محجوبتين والكليلتان تنظران إلى فوق. إنه **بريطون** (Breton) الصغير بجبهة متصلبة، وبوجنتين رماديتين، وبشارب ناشئ، وكان هادئاً ومستسلماً وقليل الكلام. **لم** يصدر أي كلمة شكوى أو طلب لا له ولا لذويه. أجاب عن طريق الإشارة أنه لا يعاني من أي شيء. أخذ نبضه يضعف تدريجيا، مثل الضربات الأخيرة لجناح عصفور مُنهك.

****

**في الرابعة و45 دقيقة،** حاول بلا جدوى القيام بحركةٍ على الجانب، فسقط على ظهره وأصبحت عيناه ثابتتين تماماً، بينما كان يقطر العرق الهارب مثل اللؤلؤ على صدغي من سبق إلى الانطلاق نحو الأبدية.

بعد أن تم إغلاق جفنيه، نُقل بعيداً إلى الغرفة الصغيرة المخصصة للتموين ولُف داخل الكفن، وغُطي بالعلم الثلاثي الألوان، محاطاً بسيقان الدفلى البيضاء العالية المزهرة ونبتة إبرة الراعي الحمراء، ينتظر، قُرب رفاقه في السلاح الذهاب ليرقد رقدته الأبدية في حديقة القنصلية.

****

**في الخامسة صباحاً،** نتج هجوم عنيف للعرب على طول الخط، لكن أساساً وبشدة على قنصلتي إنجلترا وإسبانيا القريبتين من المدينة الأهلية. لقد كانت نار كثيفة، تجاوزت شدتها، في بعض الأحيان، كل ما سبق لنا أن سمعناه، كان ينبغي الجري إلى المخارج بُغية الجلاء عبر نقط مختلفة. بالقرب من القنصلية البريطانية لم يمنع حريق قصفاً جد قريب، كان الملازم الثاني **دو تيسيي** قد طرد المغاربة مرتين بالحربة. لم يصب أحد بجروح، لكن ثلاث بنادق كُسرت برصاصات بين أيدي رجاله. بجانب **سيدي بليوط** تحمّل الملازم الثاني **كايلار بانسيل،** الذي يرأس مجموع البيوت البرتغالية، ناراً كانت تهدّد بقطع الاتصال مع البحر. علم الرائد **مانكان** أن عدداً كبيراً من رصاص البنادق انطلق من الأكواخ المجاورة لقنصلية فرنسا، قرّر إنهاءه وتنقية المكان بالسلاح الأبيض. كان **كوسم** مكلفاً بالعملية رفقة عشرين بحاراً من **كاليلي**. انتهى إلى

نوع من الحواجز المحصنة التي تحتوي أكواخ القصب والقش، وتخفي القناصة المترصدين وتسمح بالهرب من خلال الحواجز. انفجر الباب تحت خرطوشة من الديناميت، بينما حرَس بعض البحارة المدخل ونبشت الأكواخ بالحربة.

أثناء مجرى العملية، تم إيجاد بعض العجائز تطلقن زغاريد يُرثى لها وكانت كل أطرافهن ترتعد. فتشت نفس الدورية بعد ذلك أكواخ الأهالي القريبة جداً من الشركة المغربية. على طريق العودة، التقى بحارتنا، عجوزاً مغربية تسبح في الدم، وقد اخترقتها عدة رصاصات، حطّمت واحدة ذراعها وأزالت جزءاً من ثديها. كانت طافحة بالقمل، حملوها ونقلوها إلى المستشفى الميداني. سألتها الآنسة **سبيني** والدكتور **ميرل**، فحكت أنها كانت تريد حماية ابنتها الصغيرة من الشاويين الذين اغتصبوها أمام عينيها وأسروها. على الرغم من ذراعها المنكسرة وصدرها الدامي، كانت قد حاولت اللحاق بآخر طفلة لها، ونادت عليها من مسافة، وقالت لها إنها لن تتخلى عنها. استفزت نداداتها غضب الخاطفين، قليلي الاهتمام بأن يكونوا مرفوقين بفم لا جدوى منه، أطلقوا النار على سيئة الحظ، فقدت هذه المرة الكثير من الدم، خانتها قواها، فسقطت على الطريق. ضُمدت وطُيّب خاطرها، تم استشفاؤها داخل كوخ صغير بالساحة، لم يكن هناك ما يكفي من الوقت لتخليصها من كتيبة القمل. ظلّت ساعات دون شكوى أو دموع، وبلا حراك، وظلت عيناها ثابتتين كما لو أنها لا تستطيع الانفصال عن مشاهد الرعب. على مسافة قصيرة حافظ بعض الأسرى، الذين استعملوا في الأشغال الشاقة عند الاقتضاء، على موقف لا مبال، دون أدنى حركة،

كانوا مقرفصين على مؤخرات أقدامهم، مغطّين بأثوابهمٍ البالية القذرة: كان المظهر الوحيد الذي يمكن أن يكون مفاجئاً لديهم هو نظرتهم المنذهلة إلى تحضيرات البحارة الذين انطلقوا في فرقة عسكرية.

ومع ذلك كانت القبائل تسارع من كل الأماكن داخل الدار البيضاء، ثم، وقع التدفق، كانت القبائل تندفع على نقط المقاومة، المقطع الوحيد الذي تبقى للراجلين.

****

**في الساعة السابعة و40 دقيقة** أشار **فوربان:** "وصل آلاف من الفرسان من مازكان نحو أقصى المدينة." من جهة باب السوق، لاحظ **كوسم** أيضاً تجمّعات قوية من الفرسان وكان مجبراً على أن يرد بالمدفع ذي 65 ملم من أجل مساعدة القصف الفعّال للسفن على البوادي. لكن بحركة جد محدودة في الطرق. أشار نوتيو الإشارة المتموقعين بقنصليتي إسبانيا وإنجلترا وسط الرصاص إلى أخبارٍ مقلقة. خرّ واحد منهم، هو **لوكين** (Le Guen) من **كاليلي**، صريعاً على صدره بسبب رصاصة خرجت من ظهره ودارت فوق ثديه الأيمن. كانت موجهة أساساً لهؤلاء النوتيين الشجعان الذين جرح أربعة منهم، دون أن تتعرض الإشارات أبداً لتوقف أو لخطأ في النقل.

****

**في الساعة السابعة صباحاً**، وصلت إلى قنصلية فرنسا مندوبية من قنصلية إسبانيا كان على رأسها المستشار والملازم الثاني قائد الفرقة العسكرية، الذي فسر للرائد **مانكان** أنه من وجهة نظره أن الوضعية جد سيئة أكثر من أي وقت مضى وأنهم لا يعرفون إن كانوا يستطيعون البقاء مدة أطول. خلال الليل، كان الشاويون يتسللون من بيت إلى آخر واحتلوا مواقع صعّبت مدخل دفاع القنصلية.

إلى غاية هناك، لم يكن القائد **مانكان** يريد الانفصال عن ملازم السفينة **دو بوتي توار**. كانت، هذه المرة، وضعية مراكزنا المتقدمة تبدو خطرة وكان يتوجّبُ التعرف على الوضعية بفرقة عسكرية مهمة، وبضابط على معرفة تامة بموارد الدفاع، والذي سيتخذ القرارات المرجوة. وُضعت آخر القوة المتوفرة، 15 رجلاً من **دو شايلا** و30 من **فوربان** مع الملازم الثاني للسفينة **بيري** رهن إشارة السيد **دو بوتي توار**. عمل **بوكرا**، بأمر من القائد، كمترجم عربي: اطلع السيد **ميرسيي** و**عبد القادر**، مخزني القنصلية، بمهام المرشدين.

****

**في السابعة والنصف** اجتازت الكتيبة باب دار فرنسا، لكن بمجرد ما اجتازت 200 متر وتجاوزت مسجد القائد، ذا الصومعة المشرومة، التي سقطت على عصابة من المغاربة، حتى اقتحم هؤلاء عدة حوانيت وأفرغوا أسلحتهم عن قرب. عمل السيد **دو بوتي توار** على غلق الطريق وأطلق نيران الرشق. سقط عرب، وهرب آخرون جرحى، لكن العدد الأكبر كان محتمياً داخل المنازل المفتوحة والمخربة. كانوا متمركزين في الفتحات أو

محتلين للسطوح، احتفظوا بامتياز التموقع. جرحوا عدة بحارة. كان في مؤخرة الجيش الرقيب البحري المدفعي **لوكال** (Le Gall) من **دو شايلا**، وقد اخترقت رصاصة فوق ركبته اليمنى. بالمركز، وأصيب العريف البحري للفرسان **كرين** (Crenn) من **فوربان** على مستوى عظم الفخذ. كانت الذراع اليسرى للمدفعي المساعد، كالفيز (Calvez)، من **فوربان**، المتموقع في الأمام بجانب السيد **دو بوتي توار**، مكسرة برصاصة. دون أن يقول شيئاً، انتظر في الصف، حتى يخلي قصف رفاقه الطريق. مرر، إذن، بندقيته إلى مجاوره، أخبر بجرحه السيد **دو بوتي توار** الذي كان يقود الهجوم، ولم يدرك شيئاً، ووصل بهدوء إلى حائط قنصلية فرنسا.

رأى السيد **دو بوتي توار** أنه سيتكبد خسائر ضخمة بلا فائدة، والآن قد تعرّف على الحي، لم يتقدّم إلى الأمام دون امتياز. قاد إلى اليمين الفرقة العسكرية وبمعركة رجل لرجل كسب الدرب المؤدي إلى قنصلية إسبانيا. حدّد للرجال أنه يشرف من قامته الطويلة على قمم الحيطان أو السقوف الأكثر خطورة. ادّخر هكذا تضحيات جديدة وأمكنه أن يهب دون تأخير لنجدة الإسبانيين بعد أن أجلى جرحاه إلى المستشفى الميداني. وصلت كتيبة **دو بوتي توار** في الوقت المحدد من أجل إخراج القنصلية الإسبانية من وضعية حرجة. استقبلت بصرخات، تحيى فرنسا. على الرغم من الإمدادات المرسلة في اليوم السابق وقوة الدفاع التي يعود الجزء الأكثر بروزا منها إلى العريف البحري **بوازار** (Boisard) من **دو شايلا**، كان العدو يقترب شيئاً فشيئاً. مات بحار إسباني وأصيب اثنان بجروح، وجرح أربعة بحارة فرنسيين. وقال الضابط الإسباني أنه لا يستطيع الصمود لفترة

طويلة، كانت المنازل المجاورة المشرفة على قنصلية إسبانيا تحت يد المجتاحين. كان ينبغي الاستيلاء عليها من أجل تكسير الدائرة التي تضيق. انطلق السيد **دو بوتي توار** مجدداً نحو قنصلية فرنسا من أجل أخذ قطعة مدفع منها. اندفع ثلة من البحارة من **دو شايلا** بالحربة داخل فندق فرنسا الذي احتله العرب. دحروهم قطعة قطعة، خطوة خطوة، طابقاً طابقاً، وانتهوا بتسلّق سلم السطح، آخر وأعلى ملاذ لخصومهم المذعورين الذين أرسلوا ناراً كثيفة وراءهم قبل أن تنفجر في ساحة الفندق الدولي. احتل بحارتنا السطح. ومن هناك أشرفوا على قنصلية إسبانيا وساحة الفندق الدولي، الممتلئ بالشاويين الذين قصفوهم كما لو كانوا داخل بئر. حدث تشتيت. بعد إطلاق بعض نيران الرشق على الفارين، أفرغت ضواحي قنصلية إسبانيا. دخل البحارة الفرنسيون آتين برفيقهم **فيترينو** (Vetraino) ودمه يسيل على درجات السلم. هتف لهم الإسبان بصرخات: تحيا فرنسا، تحيا إسبانيا! من أجل تجنّب محاصرة جديدة، عيّن السيد **دو بوتي توار** للحراسة المداومة الملازم الثاني **بيري** رفقة 15 رجلاً من **فوربان** ومدفع 37 ملم، ثم توجّه نحو قنصلية إنجلترا حاملاً مدفعاً ذا 65 ملم، فطلب على عجل من قبل الملازم الثاني **دو تيسيي** الذي كانت وضعيته جد مخيفة إذ أن القنصل تجاوز الرقم. هناك أيضاً سمح تشابك البنايات المجاورة للعرب بالتسلل خلال الليل حول الحامية الصغيرة والسيطرة عليها عن كثب. من أجل الانفكاك، قام السيد **دو تيسيي** بأربع خرجات بالحربة؛ لكن الدائرة كانت قد شكلت مرة أخرى. إذا كان الخصم قد تجرأ على تحطيم الأبواب، فإن عدده سيسمح له بإنهاء كل شيء. كان القنصل، بعد أن دمر أرشيفاته، ينتظر الاجتياح. وأخيراً وصل **دو بوتي توار** من قنصلية إسبانيا، جر

رجاله بسواعدهم **مدفع** 65 ملم، ورفعوه فوق السطح البريطاني وتبثوه كما في قنصلية فرنسا مستعملين أفرشة ومخدات زودهم بها السيد **مادن.** على الفور انشغل السيد **دو تيسيي** بضبط التسديد. حين نزل السيد **دو بوتي توار** من السطح، انفرد به قنصل إنجلترا وقال له: "في إنجلترا نحن مشهورون ببرودة الدم والطلاقة أمام العدو. لكن أعتقد أن السيد **دو تيسيي** أظهر خلال هذه الأيام أنه يفوق الإنجليز. سأقدم تقريراً إلى السير **جيرالد لاوتر** (Gerald Lowther)، وزير بريطانيا العظمى بالمغرب، عن تصرفه الجيد وتصرف بحارة **دو شايلا** الموجودين تحت إمرته."

جعل المدفع، الموجّه من قبل السيد **دو تيسيي**، ملاجئ العدو لا تطاق. هرب المغاربة. وصاَر المدافعون سادة ضواحي القنصلية ودمروا كل ما يمكن أن يمنع من إبقاء العدو على مسافة. أمكن السيد **دو بوتي توار** الذهاب إلى هناك وهو يقتاد فرقته العسكرية. لكن **دو تيسيي** أجبر على الحفاظ على امتيازه، لأن القناصة المترصدين عنيدون. انتهى بأن يكون الضحية. حينما كان يوجه مدفع 65 ملم اخترقت رصاصة فخذه وهمد على خرطوش البحار **كاريك** المتموقع خلفه. بالرغم من أنه فقد الكثير من الدم، أراد أن يبقى بموقعه، لكن قواه خانته واضطر رجاله لنقله. أخذ العريف البحري **كيو** (Guillou) مكانه، لحظات بعد ذلك اخترقت رصاصة قبعته.

إبان ذلك عاود السيد **دو بوتي توار** المرور عبر قنصلية إسبانيا من أجل أن يطمئن أن المغاربة لم يجددوا هجومهم. وجد المركز هادئاً، يراقب فقط إطلاق النار اللازم من أجل حماية الضواحي غير المأهولة بالسكان. حين دخل إلى دار فرنسا، دون أي خسائر

جديدة، مطّلعاً بمهمته واحتفظ بالقنصليتين، أشارت **كاليلي** إلى اقتراب أسطول الأميرال **فليبير**. لم تتم رؤيته بعد، لكن السّفينة ربطت الاتصال معه بواسطة التلغراف اللاسلكي. وتلقّى ضابط الفركاطة **أوليفيي** من الأميرال في الثامنة و45 دقيقة البرقية التالية: "أهنئكم على عمليتكم الصارمة." لحظات بعد ذلك وصلت البارجة الحربية **لاكلوار** (La Gloire) على مسافة حيث صارت الأعلام مرئية، رفعت الإشارة: "يعبّر الأميرال عن رضاه عن **كاليلي**."

ثم أرغم الهجوم العربي على التراجع على كل الخط، شرع الرائد **مانكان** في عملية تسهيل نزول كتائب الجنرال **درود** (Drude) التي ستنزل إلى البر فيما بعد الزوال. النقطة التي اختيرت هي جون **سيدي بليوط**، أو الجون الصغير للمنقالات، أرسل الملازم المساعد **كوسم** مع قسم **كاليلي** المكلف بقمة حائط المدينة من قنصلية البرتغال إلى باب الراح. نتج اشتباك قوي جداً، لأن العرب المفاجئين دافعوا وهم خائبي الأمل، وهم متراجعين إلى الأسوار. لم يستطيعوا تجنّب الحربات التي كانت تنفجر في البادية سوى بالقفز من علو عدة أمتار، مجازفين بتكسير السيقان أو أن يكونوا عرضة لقصف البنادق، إن تمكنوا من الهرب، بعد سقوط محظوظ.

تواصل القصف حول المراكز لكن عبر هبّات متفرقة، دون تركيز هجومي على نقطة مقصودة. نقّى قصف **كاليلي وفوربان** البادية وأبعد عن الأبواب عصابات جديدة وصلت دون توقف. فجأة توقف دوي الرصاص ودوي المدافع؛ استراحة لبضع دقائق كان بفعل عمل سحري. فوجئت الأذن المتعودة على القصف:

تم التساؤل عما حدث، وتم الاندفاع نحو السطوح من أجل الرؤية. حينها تمت رؤية أدخنة سوداء على البحر، من بعيد، تصل على نسق واحد: إنها الأسطول الفرنسي! عمل العرب، مثلنا، بلا شك على الاطمئنان على أن الأمر كان يتعلق بعدّة سفن وعلى تكوين فكرة عن القوى التي وصلت، من هناك، تولّد نوع من إيقاف استعمال الأسلحة، بشكل طبيعي. رمى كل واحد بندقيته من أجل التبيّن والتأكد من الإشاعات المنتشرة. كانت المعاينة بلا شك مؤيدة الفركاطات: استأنف إطلاق النار وصفير القذائف، لكن بشكل معزول، بشدة أقل، مع فترات استراحة. اقترب الأسطول، وهو يزيد في السرعة. تقدمت السفن المندفعة بأقصى سرعة تحت سيول من الدخان. في المكان الأقرب الممكن بالساحل من أجل تسهيل النزول. أرست في نفس الوقت. لم يسبق أبداً أن تمت رؤية خط من السفن الكبيرة جداً أمام الدار البيضاء. اعتقد الأهالي، إذا كانت **كاليلي** الصغيرة مخيفة جداً، فإن الكتل الثقيلة والمنتعشة للمدافع والمليئة بالجنود بمستطاعها أن تفني المدينة. ادّخر هذا الخوف للسفن تدخلاً كان الأميرال يريده أيضاً معتدلاً ما أمكن، لكنه يبقى حلاً إن دعت الضرورة إليه. بالفعل أشار **لاكلوار**: "وصلت السفن إلى المرسى، والطاقم إلى مراكز المعركة، والقطع المزودة بقذائف رصاص أسود. سيتم الاحتفاظ بالركاب بجانب المدافع دون التشويش على إعاقة إطلاق النار. ستقدّم الأهداف من قِبل الأميرال عبر التلغراف اللاسلكي، لن يكون القصف مفتوحاً من السفينة على التجمعات العربية، إلا بأمر معطى بإشارة." حيّت **كاليلي** الأميرال بإطلاق قذائف على عصابات الناهبين التي تركت المبنى المحجوز مع غنيمتها. ارتأى سكان القبائل العودة إلى بيوتهم، رفقة ما كدسوه من غنائم. حمّلوا على عجَل مطاياهم المحاطة بالأسرى.

بُعيد ذلك شرعت مدافع **لاكلوار** و**دي كوندي** (Du Condé) و**دي كيدون** (Du Gueydon) في الاشتغال. تم التعرف عليها بصوتها الحاد. أخلى القصف نواحي الشاطئ وشتت ما تشكل من تجمعات بعيدة. توجّه القائد **أوليفيي** منذ وصوله إلى الأميرال **فليبير** الذي أبطل بمعية الجنرال **درود** أوامر النزول.

****

**في الثانية عشرة و10 دقائق زوالاً** أشارت **لاكلوار**: "ابدأوا إركاب الكتائب في القوارب عبر يمين السفينة. نزلت الكتائب دون حقائب، كانت المعدات محمولة على الأحزمة، و120 خرطوش وأغذية في أكياس وأخرى إضافية في مخلاة. انتظروا الأوامر. من أجل دفع القوارب. إن رأت السفن بعض التجمعات فلن تتردد في إطلاق النار عليها."

****

**في الواحدة بعد الزوال،** شوهدت القوارب الأولى الممتلئة بالرماة الجزائريين وفرقة أجنبية. كان حماس البحارة والجنود لا يوصف: كانت التهليلات تُسمع من البر. كان الجميع حريصين على التحرك. كان الجنرال **درود** وقنصل الدار البيضاء السيد **ماليبرتي** الذي عاد إلى منصبه، على متن القارب البخاري للأميرال، على رأس هيأة الإنزال. تجاهل العريف البحري **للاكلوار** الذي كان يمسك الدّفة تحديدات القائد **كيرني** (Querné)، من الزورق الحربي لـ**كاليلي** وصل إلى الساحل في خط مستقيم فوق المياه الضحلة الخطيرة. كان التموج قوياً وتقوّى بفعل المدّ، خلال

تلك اللحظة كان المركب على وشك الارتماء على الصخور، ثم يتدحرج بعد ذلك. رشّ ماء البحر بغزارة الجنرال والقنصل اللذين نزلا مبللين على صخور **سيدي بليوط**. انتشرت نار السفن الموجودة على المرفأ وحمت وصول الجنود الذين انتشروا على الفور واحتلوا الشاطئ دون خسائر أو وقوع أي حادثة. لكن تم التساؤل بخوف عن ما كان سيحدث لو أن الكتائب نزلت دون أن تبلغ المدينة، أمام آلاف من المحاربين من القبائل وداخل ظروف بحرية صعبة جداً، على الرغم من قصف السفن، ضحى عدد من جنودنا بحياتهم من أجل احتلال مدينة مكونة من ثلاثين ألف نفس، اجتاحها عرب الضواحي. لم يكن **مولاي لامين** الذي طغت عليه قبائل الشاوية، قادراً لا على تسليم المدينة سلمياً ولا على حمايتها من النهب، ولم يتم احتلال سوى أنقاض بتكلفة خسائر ضخمة. بدل هذا أدى الرائد **مانكان** وملازم السفينة **دو بوتي توار** التحية إلى الجنرال **درود** وقدّما له تقريراً عن الوضع بالبر. شرعت الكتائب في تنفيذ محاصرة للمدينة، صعد الجنرال رفقة القائد **مانكان** والسيد **دو بوتي توار** على الزاوية الشرقية للأسوار من أجل التعرف على واجهة البر والبادية المجاورة. عند العودة إلى **سيدي بليوط** أمر الجنرال **درود** السيد **دو بوتي توار** بأن يحتل واجهة البحر وأن يفتح أبواب الجمارك والميناء بتفجيرها إذا اقتضى الأمر ذلك. وضع تحت أوامره، من أجل هذه العملية، قسماً من فرقة أجنبية وجزءاً من النسّافين الصغار للأسطول الذي يرأسه ملازم السفينة **موتي دي كيدون** (Motet du Gueydon)، كان باب الجمارك مغلقاً بصلابة ومقفلا. تخلّص السيد **موتي** (Motet) من مفصليه فقط، بالديناميت، متخذاً كل الاحتياطات من أجل عدم زعزعة مستودع **بارود** المخزن الذي كان يُعتقد ظلماً أنه مليء جداً.

فتح باب الميناء، المقفل منذ دخول فرقة **كاليلي** العسكرية في الخامس من شهر غشت في الصباح، بشكل نهائي. صارت المواصلات منذ ذلك الحين حرة تماماً مع البحر. من خلال العودة إلى قنصلية فرنسا من داخل المدينة، أخذ السيد **دو بوتي توار** فرقاً عسكرية من بحارة **دو شايلا** والمدفعية التي تركها في الصباح في مواقع مختلفة. تحمّل رجاله آخر طلقات النيران من بعض المتعصبين المعزولين. خلّف هذا الصراع النهائي ضحية، وهي البحار **بيسي** (Bessi)، من **دو شايلا** الذي اخترقت رصاصة فخذيه. تشير هذه المقاومة اليائسة إلى مدى الحكمة في حماية الأوروبيين. عجّل العرب بالذهاب إلى البادية قبل أن تصير المحاصرة تامة. سار الجنرال **درود** بمحاذاة الأسوار من الخارج على رأس كتائبه، من أجل فصل القبائل عن المدينة فورياً، ومنع عودة أي عصابات.

خلال ذلك السير، سبب حادث في إصابة شخص آخر بجروح من **كاليلي** وهو الملازم الثاني **كوسم**. كان قد اتخذ رفقة قسمه زاوية المبنى المشرف على ضواحي **سيدي بليوط** خلال الإنزال، ثم كان يحيط بسير الجنرال إلى غاية باب السوق، كي يخلي طريق الحرس ويراقب من أعلى الأماكن حيث كان يمر الجنرال ويحتل الباب من حيث كانت تدخل الكتائب إلى المدينة. كان مدفوعاً إلى ملاحقة مغاربة هربوا أمام بحاريه، جرى في مقدمتهم وتقدّم فوق السقف المحترق لمنعطف زاوية. تكسّرت العوارض النصف مستهلكة تحت ثقل وزنه، سقط **كوسم** من مرتفع بعدة أمتار فوق الرماد المشتعل. من حسن الحظ أنه نهض دون وقوع أي حادثة جديدة سوى بعض الكدمات المتعددة واحتراق قدمه التي نتنت أثناء العودة، بسبب مروره وسط ضاية، حيث كان يأسن دم جثة متعفنة.

وجدنا الدم في جميع أنحاء المدينة، كانت قد تورمت، ورشحت وأصبحت مُقرفة بفعل حرارة شمس غشت التي نشطت عملية التحلل. نتجت عنها رائحة عفنة وأسراب من الذباب عنيدة بشكل مرعب. كان أول اهتمام للقنصل هو دفن الموتى، على الرغم من الأقنعة الواقية من التعفن والأجر المرتفع جداً، لم يتم العثور على عدد كاف من اليهود لمواجهة هذا العمل الشاق. في نهاية بعد الزوال تم الاحتلال العسكري للأسوار، وللأبواب، وأحياء مختلفة، دون تسجيل أي حادثة تذكر، سوى بعض الطلقات النارية من السطوح من قِبل أشخاص معزولين كانوا يحرقون آخر خرطوش خيبة أملهمَ. أصيب فقط جندي من الفرقة الأجنبية برصاصة.

حين نفذ الجنرال **درود** إلى قنصلية فرنسا، كانت الساعة حينها تشير إلى الرابعة وتم الذهاب إلى إجراء جنازة المدفعي **كيو** من **دو شايلا** المتوفى في الصباح. كان الدكتور **بروني** قد كفنه، مثل **بوردولو**، بثوب بساط بطريقة تسمح برفع الباقين على فترات وهو ما كان. أقيمت الصلوات كما في اليوم السابق من قبل فرانسيسكاني وذهب رفيقنا المسكين المخفور بكل السلطات العسكرية والمدنية، ليرقد تحت أشجار الدفلى المزهرة. على خطوات، داخل الفناء، كانت هناك حركة صاخبة للذهاب والمجيء، حوارات سريعة، أوامر، زيارات، إجراءات وحركةً غريبة للأزياء والمعاطف. لم يكن المستشفى الميداني أقل اشتغالاً. لم يكن جرحى الصباح وحدهم في حاجة إلى أن يضمدوا وأن يوضعوا في أماكن مناسبة؛ بالإضافة إلى ذلك أرسلت الفرق العسكرية التي كانت تحتل المدينة، الجرحى المدنيين، أوربيين أو

أهالي، من الذين وُجدوا متخلّى عنهم في المنازل أو في الطرق. كان في قاعة التضميد، كما في الحديقة، موكب: تعرّض ثلاثة يهود للطعن بخناجر مغربية على مستوى الفخذ والوجه والبطن. تلقّى ربي وهو يدافع عن ابنته ست رصاصات اخترقت فخذيه وصدره وذراعيه، وظل دون أي علاج منذ 36 ساعة. تلقى إسبانيان إطلاق النار على الصدر. حُمل عرب مصابين إلى حد ما بجروح خطيرة، جُمعوا داخل الأكواخ. بعد تضميدهم، تم إجلاؤهم إلى مسجد **سيدي بليوط** الذي حوّله الدكتور **ميرل** إلى مستشفى أهلي. بفضل المساعدة المستعجلة للدكتور **بيشون** (Pichon)، تم التمكن من تضميد ضحايا ذلك اليوم.

منذ يومين كان صالون القنصلية قد مُنح للمستشفى الميداني. ظل ذوو الجروح البليغة بمكتب القنصل متكئين على الأرائك. استُخدمت غرفة الأكل كغرفة للعمليات وللتضميد وللتنظيف. بعد أن ترك السيد **مالبيرتي** بيته وحديقته في مثل هذا النظام الجميل قبل شهر وجد مكانهما مستشفى ومقبرة.

مع ذلك، فقد حمل الشاويون على عجل الغنائم المكدسة داخل المبنى الاحتياطي، سواء فوق ظهورهم أو فوق مطاياهم. عمل نساء وأطفال على مساعدة الرجال، جمعوا الأشياء وهيؤوا الرزم. أطلق **كيدون** الذي رأى هذا العمل بعض القذائف إلى أولئك المشتغلين. بُعيد ذلك نقلت القنصلية الإشارة حسب **لاكلوار**: "أخبرنا **مولاي لامين** أنه يوجد نساء وأطفال لاجئين داخل المبنى الاحتياطي." أجاب الأميرال على الفور: "لقد أصدر الأمر للجميع بوقف إطلاق النار على ذلك الجزء من المدينة."

كان مدفعيو السفن منشغلين بإبعاد عصابات الفرسان والبدويين داخل السهل الذين واصلوا التدفق في الأفق، بينما كانت القوارب تنزل عمال ومعدات الفرقة العسكرية.

****

**في نهاية ما بعد الزوال** أشار الأميرال **فليبير** إلى **كاليلي**: "خذوا متى استطعتم رجالكم إلى البر بغية التهيؤ للإبحار في أقرب وقت ممكن نحو الرباط." جمع **كوسم** وهو مُضمد القدم **وبلاند** ويده في الإشارب، الفرقة العسكرية بساحة القنصلية، عهد الدكتور **بروني** الجرحى إلى الدكتور **بيشون** والسيدة **ميكري** الأم والآنسة **سبيني**، ثم ذهب الثلاثة لتوديع الرائد **مانكان** وملازم السفينة **دو بوتي توار**. قبل أن يستعيد صاحب البوق **أودران** مقدمة البحارة المجتمعين كما في صباح يوم 5 غشت وراء **بلاند**، قدم لهم القائد **مانكان**، جدول أعمال: "لقد كان تصرف فرق عسكرية البحارة الذين شاركوا في الدفاع عن الدار البيضاء، جديراً بأكبر ثناء، لقد أثار إعجاب كل الأجانب."

كان الملازم الثاني **دو سيزيو** قد جاء رفقة المراكب إلى جون **سيدي بليوط** مصطحباً سرية **كاليلي**، كما كان قد أنزلها إلى البر قبل ثلاثة أيام. كان البحارة يغنون النشيد الوطني الفرنسي وكان العديدون يحملون كتذكار من القنصلية أغصاناً من الدفلى المزهرة. بما أن الليل قد حل حين مروا بالقرب من السفن على المرفأ، هتف لهم الطاقم. وصلوا إلى قرب **كاليلي**، فكان دور الرفاق الذين ظلوا على السفينة من أجل أن يهتفوا بالتشجيع وبالنشيد الوطني الفرنسي الذي أعيد بأعلى صوت، دون تفاهم متفق عليه.

****

**في الليل،** تهيأتٍ **كاليلي** للإبحار، غادرت الدار البيضاء التي صارت ميناء حربياً فرنسياً، متجهة نحو الرباط وسلا. يفصل بين هاتين المدينتين نهر أبي رقراق، وتشكلان تجمعاً سكانياً واحداً، ولهما حاكم واحد، لكن بينما الرباط مأهولة ببعض الأوربيين، فسلا مدينة مقدسة، لا تحتوي سوى على مسلمين تشكل أسرهم منبتاً لموظفي المخزن. أيضا كان الأميرال **فيلبير** قد أصدر أمراً للقائد **أوليفيي** بأن ينقل عند وصوله لباشا المدينتين، عبر وساطة قنصلنا، هذه الرسالة المقتضبة التالية: "إنْ قُتل أوربي بالرباط، فلدينا أمر بتدمير سلا." فيما بعد لم يفهم بعض الصحفيين لماذا ينبغي أن نعاقب سلا على جرائم الرباط. بدا لهم هذا غير مستحق وأساء إلى شعورهم بالعدالة التوزيعية بأن المعارف الأكيدة في الجغرافيا كانت ستطمئن. كانوا يتوفرون على الأقل على فكر حليم بعدم إرادة نسبة ظلم إلى قائد عسكري، حتى مزيد من المعلومات، بأن يعتقد وجود خطأ في النقل. استعجلوا إذن في تصحيحه وكتبوا: "إذا قتلوا أوربياً بالرباط فقد أصدر الأمر بتدمير هذه المدينة القذرة." لم يكن للمغاربة أدنى شك في الترجمة ليعطوها لهذه الإشارة المرفوعة على عوارض صاري **كاليلي**، منذ أن ترجمها لهم قنصلنا السيد **ليريش** (Leriche) المستعرب المميز.

كان هناك أثر عجيب لفصاحة الأميرال أو قوة **كاليلي** في اليوم الموالي للدار البيضاء: على الفور غيرت استعدادات الأهالي بشكل جذري. لم يجب القائد، في اليوم السابق، عن الأمن، وأكّد أنه يضمنه اليوم؛ سكان سلا الوجهاء والأغنياء الذين كانوا يطلبون كما كان منذ عهد قريب بالرباط، كما في مدينتهم، بتخليصها من

دنس الأوربيين، اجتمعوا على عجل من أجل أن يؤكدوا للقنصل عن عمق صداقتهم؛ فالرعاع، الذين كانوا يهددون بالكلام والسلاح في اليد، بإبقاء الأوربيين بشدة مغلق عليهم بمنازلهم، عبّروا الآن عن احترامهم الراسخ. في بضع ساعات، عاد الهدوء، واستتب النظام، وتم ضمان العلاقات الجيدة، وتحرر الأوربيون من كل الإكراهات، واستأنفت الحياة بشكل معتاد، واستأنفت التجارة والأعمال كما ينبغي. فيما بعد، بأزمور، وبمازكان، وبآسفي وبموكادور، في اللحظة حيث كان المحرضون على الفتنة يثيرون الساكنة، وكانوا يهددون الحياة المنتظمة للمدن، أو كانوا يعبرون عن عدائهم لمراقبة الجمارك وللشرطة لم يكن هناك أي حجة دبلوماسية جد مقنعة سوى حضور السفينة.

كان أبناء المدينة يذكرون مصير سكان الدار البيضاء، وكان القواد يعتقدون أن كل الأحداث التي أعقبت إطلاق نيران البنادق على الفرقة العسكرية الداخلة إلى المدينة يوم 5 غشت عبر تطمينات سلمية شكلية، كان أصلها خطأ القايد **سي بوبكر**، كما أظهر ذلك التحقيق حسب شهادة الجندي **محمد بن المعطي**. خطأ إصدار أوامر لجنوده أو أن يتموقع هو نفسه من أجل حماية الأوربيين، أدخل بلاده في سلسلة من المساوئ. كم من حياة أوربيين وعرب أنقذتها مدافع **كاليلي**، دون أن تدوي، فيما بعد كان كل واحد يقول: "إنها الفركاطة ابنة إبليس التي أتت إلى الدر البيضاء لدعوة الشاويين إلى النظام."

# فهرس الأعلام

# أسماء الأماكن

## المؤلف

الدكتور فيلكس بروني (1872-1958) طبيب عسكري في البحرية الفرنسية، بالإضافة إلى كتابه **في الدار البيضاء من 1 إلى 7 غشت 1907** له مجموعة من الأعمال منها:

**Le Suc pulmonaire, effets physiologiques et thérapeutiques,** 1896.
**La Médication organique avant Brown-Séquard,** 1898
**Une Avarie d'Extrême-Orient : la fumerie d'opium, nécessité de l'éviter et possibilité de la guérir,** 1903.
**La Mort des fumeurs d'opium,** 1903.

## المترجم

بوشعيب الساوري باحث في النص الرحلي ومترجم مغربي، من مواليد سنة 1973 من ترجماته:

– **رحلة مراقب صحي إلى المغرب،** لإميل كيرن، ترجمة وتقديم، منشورات القلم المغربي، الدار البيضاء، 2011.

– **رحلة إلى المغرب: ست عشرة رسالة إلى أمي 1882م،** لإيمانويل شلومبيرغر، ترجمة وتقديم، منشورات دار إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2014.

– **رحلة داخل المغرب،** للدكتور ديكيجي، ترجمة وتقديم، منشورات دار النايا، سوريا، 2014.

– **من موكادور إلى بسكرة، رحلات داخل المغرب والجزائر،** لجيل لوكليرك، ترجمة وتقديم، دار الجمل، بيروت، 2016.

– **رحلة في أسرار بلاد المغرب،** لإتيان ريشي، ترجمة وتقديم، دار إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2016.

– **كنت عبدا في المغرب،** لجاك فولي، منشورات القلم المغربي، الدار البيضاء، 2017.

– **المغرب بعيون أوربية،** مجموعة مؤلفين، منشورات إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2018.

– **اثنتا عشرة سنة من الاستعباد رحلة أسيرة هولندية في بلاد المغرب 1731-1743م،** ماريا تير ميتلين، دار السويدي، الإمارات العربية المتحدة/ دار المتوسط ميلانو، إيطاليا، 2018.

للتواصل مع المترجم: Bouchaibsaouri@gmail.com

# الفهرس